١ - برنامج جمل العلم السَّنة الأولىٰ، المدينة النبويَّة- مسجد رسول الله ﷺ -يوم الخميس ٢٤ جمادىٰ الأولىٰ ١٤٣٢هـ
٢ - ((برنامج جُمل العلم السُّنَّة الأولىٰ، الكتاب الأوَّل- الكُويت -الاثنين ١٣ جمَادىٰ الأولىٰ ١٤٣٢هـ))

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلميّة والبحوث الشرعيّة
www.attafreegh.com

تعلِيقَاتٌ على
البَيِّنَةُ
فِي اقتِبَاسِ العِلمِ وَالحَـذْقِ فِيهِ

الشَّيخ صَالح بن عبد الله العُصَيْمِي

النُّسخة الإلكترونية الثَّانية

الشيخ لم يراجع التفريغ

بالتنسيق مع موقع: http://www.j-eman.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اللّٰهمَّ إنِّي أبرأُ إليك من كلِّ حولٍ وقوَّةٍ إلَّا بك وحدَك.

الحمد لله الدَّائم توفيقُه، المتواترِ عطاؤه وتسديدُه، وأشهدُ أنَّه هو الإلهُ الحقُّ المبينُ، لا إلٰه إلَّا الله العظيمُ الحليمُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا خاتَمُ النبيِّين ﷺ وعلى آله وصحبه والتَّابعين.

وبعد، فإنَّ هٰذا التَّفريغ هو دمجٌ لتعليقين للشَّيخ صالح بن عبد الله العُصيمي حفظه الله، معتمدًا على تعليقات (برنامج جمل العلم: بالمسجد النبوي كان بين)، وما أضفته من برنامج جمل العلم، بالكويت ((..)).

والشيخ حفظه الله لم يراجع هٰذا التفريغ فإن وجدتم ما يحتاج للمراجعة فراسلوني على البريد:

sallllm@gmail.com

واللهَ أسأل الإخلاص في القول والعمل.

أخوكم سالم بن محمَّد الجزائري

٢٧/ شهر الله المحرم/ ١٤٣٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمدُ لله الذي جعل مهمَّات الدِّيانة في جُمَل، والصَّلاةُ والسَّلامُ على عبدِه ورسوله محمَّدٍ المبعوثِ قدوةَ العلم والعمل، وعلى آله وصحبه ومَن دينَ الإسلام حَمَل.

أمَّا بعدُ..

فإنَّ من مبتكراتِ نَشرِ العلم (برنامجُ جُمَل العلم) وهو مسلكٌ تعليميٌّ يُشرحُ فيه اثنا عشر متنًا في فنونٍ مختلفة يُعقدُ مرَّتين في السَّنة خارجَ المملكة العربيَّة السُّعودية، وقد منَّ الله ﷻ بافتتاحِ تعليمه في سنته الأولى هٰذه في دولته الأولى، دولة الكويت، وستتعاقبُ إن شاءَ اللهُ تعالى مجالسُ تعليمه في دولٍ أخرى، ورغبةً في نشر العلم وحرصًا على إفادَتكم؛ أحبَّ بعضُ الإخوةِ أن يكون تدريسُ هٰذا البرنامج أيضًا في المسجد النَّبوي وإن كان مقرَّرًا في الأصل للتَّعليم خارجَ البلاد؛ لٰكِن تحصيلا للمقصد المذكور من مزيدِ نفعكم وإمدادكم بهذا البرنامج المشتمِلِ على متونٍ وجيزةٍ نافعةٍ، قلَّت المعرفةُ بها مع جودَتها وحُسْنِ استفتاح التَّعليم بها لاختصارها ووجازتها وما فيها من تحبيبِ الخلق في العلم؛ فاقتضى ذلك أن يكون تدريسُها -إن شاء الله تعالى- في مدَّتين مؤقَّتَتين في المسجد النَّبوي: أولاهما هٰذا الميعاد، والميعاد الثَّاني إن شاءَ الله تعالى في اليوم التَّاسع من الشهر المقبل في يوم الخميس.

وستكون الدُّروسُ اليوم على النَّحو التالي: سيكونُ بعد العصر إن شاء الله تعالى «كتابُ البينة» ثم يليه «القريضُ المُبدَع»، ثم يكون بعد المغرب «مختصرٌ جدًّا العقائد الدِّينية»، ثم يكون بعد العشاء «المعجمُ المختار من الأحاديثِ النَّبوية القصار» ثم يكون بعد فجر غد -إن رغبتم- «كتابُ المسائلِ الأربعين المتَّفق عليها بين الأئمَّة الأربعةِ المتَّبعين».

وهٰذا أوانُ الشُّروع في أوَّلها وهو كتابُ «**البيِّنة في اقتباس العلمِ والحِذْق فيه**» لمُصَنِّفِهِ صالح بن عبد الله بن حمدٍ العُصيمي.

قال المصنِّفُ حفظه الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي خلَق فسوَّى، وَالَّذِي قدَّر فهَدَى، فَلَهُ الْـحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى.

وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ صَلَاةً وَسَلَامًا بِالْـمِكْيَالِ الْأَوْفَى.

أَمَّا بَعْدُ..

فَإِنَّهُ لَـمْ يَكُنِ الَّذِينَ يَقْتَبِسُونَ الْعِلْمَ مُنْفَكِّينَ عَنْ خَبْطِهِمْ، زَائِلِينَ عَنْ خَلْطِهِمْ؛ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ، وَحُجَّةٌ مُوضِحَةٌ، تُوَجِّهُ حَائِرَهُمْ، وَتُنَبِّهُ غَافِلَهُمْ.

وَقُضِيَ لِي فِيمَا سَلَفَ تَصْدِيرُ مُقَيَّدَةٍ فِي (مَدَارِجِ الْعِلْمِ) بِعَشْرِ وَصَايَا[1]، شَرَّقَتْ وَغَرَّبَتْ مَا شَاءَ اللهُ، فَتَلَقَّاهَا[2] فِئَامٌ يَسْتَرْشِدُونَ، وَاسْتَفَادَ مِنْهَا أَخْيَارٌ مُرْشِدُونَ، وَامْتَدَّتْ إِلَيْهَا يَدٌ جَائِرَةٌ أَفْرَغَتْهَا فِي وِعَاءِ مَوْقِعٍ مِنْ مَوَاقِعِ الشَّبَكَةِ الْعَنْكَبُوتِيَّةِ مَنْحُولَةً لِدَعِيٍّ لَمْ يَخْتَرِعْ مَعْنًى وَلَمْ يَفْتَرِعْ مَبْنًى، فَأَهْوَتْ إِلَيْهِ يَدُ الْعَدْلِ تَهْتِكُ سِتْرَهُ، وَتَفْضَحُ سِرَّهُ، وَكَرِهْتُ لَجَّتَهُمْ، فَارْتَفَعْتُ عَنْ لُجَّتِهِمْ؛ لِأَنَّ الْـمَقْصُودَ إِصَابَةُ الْأَجْرِ، لَا سِرْبَالُ الْفَخْرِ، وَانْتِحَالُ الْـمَقَالِ لَا يَسُوءُ صَادِقًا طِلْبَتُهُ بَثُّ الْعِلْمِ وَهِدَايَةُ الْخَلْقِ، فَاللهُ يَغْفِرُ لِي وَلَهُ.

ثُمَّ حَسَّنَ لِي مُوَفَّقٌ سَلَّ نِصَالِهَا، وَبَوْحَ وِصَالِهَا، تَوْسِعَةً فِي الْإِفَادَةِ، فَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ، وَحَقَّقْتُ مُؤَمَّلَهُ، فَأَبْرَزْتُ «**الْبَيِّنَةُ فِي اقْتِبَاسِ الْعِلْمِ وَالْـحَذْقِ فِيهِ**» مِنْ خِدْرِهَا، تَنْفَعُ الْـمُلْتَمِسَ، وَتَرْفَعُ الْـمُقْتَبِسَ، وَتَدْفَعُ الْـمُخْتَلِسَ، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَسُورَةُ النُّورِ:٤٦].

بيَّن المصنِّفُ وفَّقهُ الله في ديباجةِ هٰذه الرِّسالة ((بعد البداءةِ بحمد الله والصَّلاة على عبده ورسوله محمَّد وآله وصحبه أجمعين)) أنَّ طُلَّابَ العلم لن يزالوا آخذينَ في خَبطهم، مُتقلِّبين في خلطِهم في أخذ العلم؛ لِجهلهم بطريقه، قالَ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (والجهلُ بالطَّريقِ والمقصودِ والآفات يُضيِّعُ عمرًا كثيرًا مع فائدةٍ قليلة). انتهى من كتاب «الفوائد».

فإذا جهِلَ الإنسان الطَّريق ضاعَ عليه علمٌ كثير، ومن أسبابِ إفناءِ كثيرٍ من الطَّلبة شيئًا من أعمارهم في اقتباس

---

(١) وبينها وبين كتابي «تعظيم العلم» اجتماعٌ وافتراقٌ، وتصديقٌ وإحقاقٌ؛ لاتِّحاد المَصدَر واتِّفاق المقصد.

(٢) ((فتَلَقَّفَها)).

العلم، ثم عدمُ الظَّفر بشيءٍ منه جهلهم بالطَّريق الموصل إليه، وإنَّ من الإرشاد لهم إيضاحُ بيِّنةٍ تهديهم وحجَّةٍ تدلُّهم (تُوَجِّهُ حَائِرَهُمْ، وَتُنَبِّهُ غَافِلَهُمْ. وَقُضِيَ لِي فِيمَا سَلَفَ تَصْدِيرُ مُقَيَّدَةٍ فِي (مَدَارِجِ الْعِلْمِ) بِعَشْرِ وَصَايَا، شَرَّقَتْ وَغَرَّبَتْ مَا شَاءَ اللهُ.. وَاسْتَفَادَ مِنْهَا) جماعةٌ، وهي معروفةٌ باسم «مدارجِ التَّحصيل إلى العلمِ الأصيل» وكانت هٰذه الضَّميمةُ أُكتوبةً مصدَّرةً في أوَّلها.

ثمَّ اعتدى عليها جائرٌ فانتحلها لنفسهِ ونشرها في أحدِ مواقع الشَّبكةِ العنكبوتيَّة، و(أَهْوَتْ إِلَيْهِ يَدُ الْعَدْلِ) ممَّن يعرفُ حقيقةَ الأمر (تَهْتِكُ سِتْرَهُ، وَتَفْضَحُ سِرَّهُ) إلَّا أنِّي بحمد الله (كَرِهْتُ لَجَّتَهُمْ) أي ضجَّتهم، و(ارْتَفَعْتُ عَنْ لُجَّتِهِمْ) أي عُرض قولهم؛ لأنَّ اللُّجّةَ هي عُرْضُ البحر، ومعنى قولِ المصنِّف: (فَارْتَفَعْتُ عَنْ لُجَّتِهِمْ) يعني عن عَرْضِ وقِيعَتهم التي تنازعوا فيها، (لِأَنَّ) مقصودَ كاتبها هو (إِصَابَةُ الْأَجْرِ، لَا سِرْبَالُ الْفَخْرِ، وَانْتِحَالُ الْمَقَالِ لَا يَسُوءُ صَادِقًا طِلْبَتُهُ بَثُّ الْعِلْمِ وَهِدَايَةُ الْخَلْقِ) وكان مَن مضى من السَّلفِ يُحِبُّون أن يَتلقَّى النَّاسُ العلم عنهم ولا يُحِبُّون أن يُنسبَ العلم إليهم؛ لأنَّ ما هم فيه من علمٍ هو محضُ نعمةِ الله عزَّ وجلَّ عليهم، فمن صِدقِ شكر الله عزَّ وجلَّ عليها؛ الفرحُ بوصولها إلى المسلمين، وعدمُ التَّشاغلِ بنسبتها إلى النَّفس؛ لأنَّ النَّفسَ مطبوعةٌ على الظُّلم والجهل وهي محتاجةٌ إلى ما يخلِّصها من ظلمها وجهلها، وممَّا يُخلِّصها من ذلك الإزراءُ عليها وعيبُها بالنَّقص، وعدم تفاخرها بشيءٍ أبدته؛ لأنَّه محضُ نعمة الله ﷻ عليها.

(ثُمَّ حَسَّنَ لِي) بعضُ الأفاضل أنْ أَسِلَّ (نِصَالَهَا)، وأن أبوحَ بـ(وِصَالِهَا) نشرًا لها توسعةً في الإفادة، فأجبتُه إلى ما رجا وحقَّقتُ له مُؤمَّلَه، وجمعتُها تحت مدوَّنةٍ باسم: « الْبَيِّنَةُ فِي اقْتِبَاسِ الْعِلْمِ وَالْحِذْقِ فِيهِ » والحَذق بفتح الحاء وكسرها أيضا لغتان مشهورتان، ومعناهُ الإتقانُ والمعرفة، ومرحلةُ الحذق مرحلةٌ فوقَ مرحلة اقتباس العلم، فجاءت هٰذه المدوَّنة:

لتُبيِّن كيفية اقتباس العلم؛ يعني إصابتهُ وحيازتَه.

وتبيِّنُ أيضًا كيفيةَ الحذقِ فيه؛ أي الإتقانُ والمهارة.

وهي بإذن الله (تَنْفَعُ الْمُلْتَمِسَ، وَتَرْفَعُ الْمُقْتَبِسَ، وَتَدْفَعُ الْمُخْتَلِسَ، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾).

البَيِّنَةُ الأُولى

الْعِلْمُ صَيْدٌ وَشِرَاكُهُ النِّيَّةُ، فَمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ وَحَسُنَ قَصْدُهُ، صَادَ مِنَ الْعِلْمِ دُرَرَهُ، وَنَالَ مِنْهُ غُرَرَهُ، وَمَنْ فَسَدَتْ نِيَّتُهُ وَسَاءَ قَصْدُهُ لَمْ يُصِبْ مِنَ الصَّيْدِ إِلَّا أَرْذَلَهُ، مِمَّا لَا يَقْصِدُهُ صَائِدٌ، وَلَا يُبَشِّرُ بِهِ رَائِدٌ، وَمِنْ كُنُوزِ السُّنَّةِ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[(١)]، وَبِتَصْحِيحِ النِّيَّاتِ تُدْرَكُ الْغَايَاتُ.

وَمَدَارُ نِيَّةِ الْعِلْمِ عَلَى أَرْبَعَةِ أُمُورٍ، مَنِ اجْتَمَعَ لَهُ قَصْدُهَا كَمُلَتْ نِيَّتُهُ فِي الْعِلْمِ:

أَوَّلُهَا: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنِ النَّفْسِ، بِتَعْرِيفِهَا طَرِيقَ الْعُبُودِيَّةِ.

وَثَانِيهَا: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنِ الْخَلْقِ بِإِرْشَادِهِمْ إِلَى مَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ.

وَثَالِثُهَا: الْعَمَلُ بِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ يُرَادُ لِلْعَمَلِ.

وَرَابِعُهَا: إِحْيَاؤُهُ وَحِفْظُهُ مِنَ الضَّيَاعِ ، وَهَٰذَا الْـمَعْنَى مُتَأَكِّدٌ فِي حَقِّ الْـمُتَأَهِّلِ الْـمُهَيَّأِ لَهُ الْقَادِرِ عَلَيْهِ.

وَإِلَيْهِنَّ أَشَرْتُ بِقَوْلِي:

وَنِيَّةٌ لِلْعِلْمِ رَفْعُ الْجَهْلِ عَمّ ... عَنْ نَفْسِهِ فَغَيْرِهِ مِنَ النَّسَمْ

وَالثَّالِثُ التَّحْصِينُ لِلْعُلُومِ مِنْ ... ضَيَاعِهَا وَعَمَلٌ بِهِ زُكِنْ

وَمَعْنَى (عَمَّ) شَمِلَ، وَ(النَّسَمُ): النُّفُوسُ، جَمْعُ نَسَمَةٍ، وَ(زُكِنْ) أَيْ ثَبَتَ.

ابتدأ المصنِّفُ وفقَّهُ الله بذكر (**البَيِّنَةُ الأُولَى**) المشتملةِ على الإعلامِ بحاجةِ متقفِّي العلم وملتمِّسه إلى تصحيحِ نيَّته، فإنَّ العلم كما قالَ: (صَيْدٌ وَشِرَاكُهُ النِّيَّةُ) والعلمُ صيدُ الأرواح، كما أنَّ الطَّيرَ وغيره من أنواع المَصِيدات هي صيدٌ للأبدان، فالعلمُ صيدُ الأرواح ((وإنَّما عُدَّ العلم صيدًا لعظيم منفعته، وطريق الوصول إليه مفتتحه النِّيَّة، ولذلك أشار إلى هٰذا الافتتاح بقوله:)) (وَشِرَاكُهُ ((النِّيَّةُ))) أي حِبَالةُ الصَّائدِ التي تُنصبُ له هي النِّيَّة، فمن كانت له نيَّةٌ في العلم فقدْ نصبَ حِبالةً متينةً لصيده، (فَمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ وَحَسُنَ قَصْدُهُ، صَادَ مِنَ الْعِلْمِ دُرَرَهُ، وَنَالَ مِنْهُ غُرَرَهُ، وَمَنْ فَسَدَتْ نِيَّتُهُ وَسَاءَ قَصْدُهُ لَمْ يُصِبْ مِنَ الصَّيْدِ إِلَّا أَرْذَلَهُ) فإنَّ مدارَ إدراكِ المواهب الرَّبَّانية على صلاحية الحقائقِ القلبيَّة، والمرءُ لا يُدرك تلك المعاني بجودة فهمه ولا قوَّةِ ذهنه ولا كثرةِ وَكَدِه وذهابه وإيَّابه، وإنَّما يُدرِكُها بحسب صلاح باطنه، فإذا صلحَ باطنهُ وزكى فتحَ الله عزَّ وجلَّ عليه أنواعَ المدارك،

---

(١) أخرجه البخاري (١) ك: بدء الوحي (١) ب: كيف كان بدء الوحي إلى رَسُولِ الله ﷺ، رقم (١)، ومسلم (٣٤) ك: الإمارة (٤٥) ب: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، رقم (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وهيَّأ له أسبابَ التَّوفيق، وإذا حُجب العبد عن هٰذا المعنى فإنَّه لا ينفعهُ كثرةُ حفظه ولا جودة علمه، ولا إقبالهُ وإدباره في العلم؛ لأنَّ العلمَ ميراثُ النُّبوّة، والنُّبوةُ اصطفاء، وكذلك مِيراثُها لا يكون إلَّا اصطفاءً، وإنَّ الله ﷻ لا يصطفي لحمل العلم إلَّا القلوبَ الصَّالحةَ له، وسرُّ صلاحيّة القلوب هي وجودُ النِّيَّة الصَّالحة فيها، فإذا اشتملت القلوبُ على نيَّةٍ صالحةٍ فإنَّ العبدَ يُدركُ بهذه النِّيّة ما لا يدركه بقُواه، روى ابنُ عساكرٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إنَّما يَحْفَظُ الرَّجلُ على قدر نيَّته)، أي بحسب صلاحيَّةِ باطنه فإذا كان باطنه صالحًا فإنَّ الله ﷻ يُهيِّئ له من أسباب القُوَى والمكنةِ في العلم ومداركه ما لا يتهيَّأُ لغيره ممَّن يتقدَّمُ عليه في الظَّاهر في جودة الذِّهن وقوَّة الحفظ. (((مِمَّا لَا يَقْصُدُهُ صَائِدٌ) أي لا يرتضيه صائدٌ (وَلَا يُبَشِّرُ بِهِ رَائِدٌ) والرَّائد هو طليعة القوم الذي يلتمس لهم الرَّبيع.))

ثمَّ ذكرَ المصنِّف أنَّ مردَّ ذلك إلى حديثٍ عظيمٍ هو من كنوز السُّنّة، وهو حديثُ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» متَّفقٌ عليه، وبتصحيحِ النِّيّات تُدرك الغايات، فإذا صحَّحَ المرءُ نيَّته أدركَ غايته، والنِّيَّةُ بمنزلة المطيَّة فإذا استسمن الإنسانُ مطيَّتهُ قطعت به الطريق، وإذا كانت مطيَّته ضعيفةً هزيلةً ربَّما انقطعت به في الطَّريق، ولم يصل إلى مراده.

((وهٰذا الحديث العظيم من أجلّ كنوز السُّنّة لأنَّه ميزان الأعمال الباطنة فإنَّ السُّنَّة بيَّنت إقامة الدِّين على ميزانين:

أحدهما: ميزان الأعمال الباطنة، وهو المذكور في حديث عمر «الأعمال بالنيات».

والآخر: ميزان الأعمال الظَّاهرة، وهو المذكور في حديث عائشة «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا» الحديث متَّفق عليه، واللَّفظ لمسلم.

ذكر هٰذا أبو العباس ابن تيمية الحفيد والعلَّامة ابن سِعدي في «مجموع الفوائد».))

ثم بيَّن المصنِّفُ بعدُ: مَدارَ نيَّة العلم؛ لأنَّ كثيرًا من النَّاس يتشوَّفون إلى تصحيح نيَّاتهم في العلم؛ لكنَّهم لا يقفون على الأصول التي توصلهم إلى ذلك، ومَردُّ تلك الأصول إلى أربعة إذا وُجِدت معانيها في قلب العبد؛ فقد وُجِدت فيه النِّيَّةُ الصَّحيحة لالتماس العلم ((وبقدر قوَّة هٰذه المعاني في قلبه تقوى نية العلم فيه وبقدر ضعفها تضعف نية العلم فيه)):

فـ(أَوَّلُهَا: رَفْعُ الْجَهْلِ عَنِ النَّفْسِ، بِتَعْرِيفِهَا طَرِيقَ الْعُبُودِيَّةِ.) بأن ينويَ مُلتمسُ العلم ومقتبسُه أنَّه يطلبُ بهذا العلم الذي يسيرُ في طريقه رفعَ الجهل عن نفسه؛ ليعبد الله ﷻ عن بيِّنةٍ وهدى، فإنَّ الغايةَ من خلقنا والحكمةَ

الإلهية من إيجادنا هي عِبادةُ الله ﷻ، فإذا وُجد في القلب هٰذا المعنى في طلب العلم كان المرءُ مُحرِزًا لأصلٍ عظيم من أصول نيَّة العلم أنَّهُ يطلب العلم ليرفع الجهل عن نفسه في كيفيَّةِ عبوديَّته ربَّه ﷻ.

ثم ذكرَ الأصلَ الثَّاني فقال: (وَثَانِيهَا: رَفْعُ الجَهْلِ عَنِ الخَلْقِ بِإِرْشَادِهِمْ إِلَى مَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ) فهو ينوي بطلبِهِ العلم بعد رفع الجهل عن نفسه أن يكونَ له جهدٌ في رفعِ الجهل عن الخلق، وذلك الرَّفع يُرادُ منه ما أشارَ إليه بقوله: (بِإِرْشَادِهِمْ إِلَى مَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ) فإنَّ المرشدَ للنَّاس الدَّاعي لهم لا ينبغي أن يكون بين ناظريه إلَّا أمرٌ واحدٌ، وهو إرشادُ الخلق إلى مصالح الدُّنيا والآخرة، فهو لا يلتمسُ منهم مدحًا وثناءً ولا منصبًا ولا رئاسةً ولا جاهًا ولا شكرًا، وإنَّما يلتمسُ أن يدُلَّهم إلى طريقٍ يُوصلهم إلى مصالح الدَّارين وسعادتها، فإذا وُجِدَ هٰذا المعنى في القلب يكونُ المرء قد شيَّد أصلًا آخرَ من الأصول العظيمة المتعلِّقةِ بنيَّةِ العلم، وهٰذا الأصل ليس تشييدُهُ أمرًا سهلًا، فإنَّ النَّفسَ تطلبُ مكانها وحظوتها ومقامها وتحبُّ ذكرها؛ لٰكِن المرءَ مع المجاهدة والمراغمة للنفس وتخليصِ النَّفس من حظوظها يُوقفُ قلبه على هٰذا المطلب فلا يكون له همٌّ إلَّا إرشاد النَّاس إلى مصالح دنياهم وآخرتهم، ولهٰذا لا ينتظرُ منهم شكرًا ولا إحسانًا؛ بل الأمرُ كما قال أبو العباس ابن تيميةَ الحفيد فيما نقله عنه تلميذه ابن القيم في «مدارج السَّالكين»: (العارفُ: لا يُعاتبُ ولا يُغالب ولا يُطالب). اهـ؛ يعني أنَّ العارفَ بأمر الله ﷻ وبالله لا يُريد من الخلق شيئًا، فهو لا يُطالبهم بشيء، ولا يُعاتبهم على شيء، ولا يُغالبهم في شيء.

((ولأنَّ أعظم أصل مشيَّد يُحصَّل به النُّفوس خيري الدُّنيا والآخرة هو العلم، وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في «إغاثة اللهفان»: أصل كلِّ خير العلم والعدل، وأصل كلِّ شر الجهل والظُّلم. انتهى كلامه.

والتَّحقيق أنَّ العدل يتوقَّف على العلم، وأنَّ الظُّلم ينشأ من الجهل، ومردُّه كلُّه إلى العلم، فأحسن من عبارة أبي عبد الله ابن القيم قول القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في «الفروق»: أصل كلِّ خير العلم، وأصل كلِّ شرٍّ الجهل.))

ثم ذكرَ الأصلَ الثَّالث فقال: (وَثَالِثُهَا: الْعَمَلُ بِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ يُرادُ لِلْعَمَلِ) أي أنْ ينويَ في طلبه العلم أن يكون عاملًا به؛ لأنَّ العلمَ لا يُمدحُ لذاته وإنَّما يُمدحُ لكونه دليلًا موصلًا إلى العمل، وربَّما أُحِبَّ العلم لذاته؛ لكنه لا يُمدحُ لذاته، وفرقٌ بين مقام المحبة ومقام المدحة، فأمَّا مقامُ المحبَّة؛ فإنَّ العلمَ يُحبُّ لذاته وقد يحبُّه أحدٌ من الكفَّار، ويُوجد في الكفار من يعتني بالعلوم الإسلامية، ورُبَّما كان فيهم من يحفظُ القرآنَ الكريم أو كثيرًا منه أو يحفظُ من أحاديث النبي ﷺ محبَّةً لهٰذه العلوم؛ لٰكِن العلمَ لا يُمدحُ إلَّا بالعمل، فالمدحُ للعلم متوقِّفٌ على وجودِ العمل، فإذا وُجِدَ العمل مُدح العلم، وإذا فُقدَ العمل لم يُمدح العلم؛ بل يكونُ صادًّا عن الله ﷻ حائلًا بين العبدِ

وبين ربِّه ولزهوه وكبره بما وصل إليه من العلم.

((فمن مقاصد النيَّة المطلوبة في طلب العلم أن ينوي طالب العلم في اقتباسه العلم والتماسه العمل بالعلم الذي يتعلَّمُه، فإنَّه إذا وُجد هٰذا المعنى في قلبه قوَّى عزمه، فإنَّ القلوب تتحرَّك بالمحبوبات، وإنَّ الأركان والجوارح تتحرَّك بالمطلوبات، فلا مُكنة من تحرُّك آلات العبد من أركانه وجوارحه إلَّا بعلم، وإذا كانت نيَّة طالب العلم أن ينوي بطلبه العلم العمل به قوَّى ذلك قلبَه على مطلوبه وساقه إلى مرغوبه.))

ثم ذكر الأصل الرابع فقال: (وَرَابِعُهَا: إِحْيَاؤُهُ) يعني إحياءَ العلم، (وَحِفْظُهُ مِنَ الضَّيَاعِ)، ((فينوي طالب العلم بطلبه إحياء العلم في بلده وجهته التي هو فيها، وأن يحفظ العلم ويصونه من الضَّياع، فإنَّ العلم يضيع والدِّين والدُّنيا أمرُ ثباتهما موكولٌ إلى وجود العلم، فإذا ذهب العلم ذهب الدِّين والدُّنيا، وإذا بقي العلم بقي الدِّين والدُّنيا، روى الدَّارميُّ بسندٍ صحيح عن الزُّهري أحد التَّابعين قال: كان ممَّن مضى من علمائنا يقول: الاعتصام بالسُّنّة نجاة، والعلم يُقبض قبضًا سريعًا، ونعش العلم بقاءُ الدِّين والدُّنيا، وذهاب العلم ذهابُ ذلك كله.

فينبغي أن يكون من نيَّة طالب العلم أن يسعى في حفظ العلم على بلده وجِهته وأن يبقى فيهم مكفولًا محفوظًا))، ثم قال: (وَهٰذَا الْـمَعْنَى مُتَأَكِّدٌ فِي حَقِّ الْـمُتَأَهِّلِ الْـمُهَيَّأِ لَهُ الْقَادِرِ عَلَيْهِ) فمن وجدَ في نفسه أهليةً للعلم لتفرُّغه له وإقبالِهِ عليه، مع قوَّةِ حفظه وجودةِ فهمه ((وقُدرته عليه))، فإنَّ هٰذا المعنى يتأكَّدُ عليه، وربَّما صارت بعضُ العلوم التي يُذكر أنَّها فرضُ كفاية فرضَ عينٍ في حقِّه، ذكرَ هٰذا المعنى القرافي في «الفروق»، فمن جادَ حفظهُ وقوي فهمُهُ وزكت نفسهُ وحسن قصده فإنَّ العلوم التي يقال: إنَّها من فرض الكفاية، تكونُ فرضَ عينٍ عليه.

وفي أخبار العلامة محمَّد الأمين بن محمَّد المختار الشنقيطي صاحب «أضواء البيان» أنَّ بعضَ أشياخه قال له في مبتدأ أمره: (يا بني إنَّ العلومَ التي هي على النَّاس فرضُ كفايةٍ هي عليك فرضُ عينٍ)، لما رأى من مهارته وذكائه وفطنته مع صلاحه، فأرادَ أن يُحفِّزهُ إلى طلب العلم كلِّه، فأرشدهُ إلى هٰذا الأمر، وهو مبنيٌّ على أصلٍ مقرَّرٍ عند الفقهاء، ذكره القرافيُّ وغيره كما سلف.

وهٰذه الأصول الأربعة هي مذكورةٌ في قول صاحب الكتاب ((في بيتين مرجَّزين)):

(وَنِيَّةٌ لِلْعِلْمِ رَفْعُ الْجَهْلِ عَمْ ... عَنْ نَفْسِهِ فَغَيْرِهِ مِنَ النَّسَمْ
وَالثَّالِثُ التَّحْصِينُ لِلْعُلُومِ مِنْ ... ضَيَاعِهَا وَعَمَلٌ بِهِ زُكِنْ)

((فهٰذه الأصول الأربعة عليهنَّ مدارُ الأمر في نيَّة طَلَب العلم، ينبغي أن يتلَّمسها طالب العلم دومًا، وأن يطلبها في نفسه، وبداءتك بحضور هٰذه المجالس حقيقةٌ بأن تتطلّب هٰذه المعاني في قلبك وأن تحرِّكها في نفسك، وأن تنظر إلى مردِّ نيَّتك بأخذك للعلم وحرصك عليه، وأنَّ وجود هٰذه المعاني في قلبك ممَّا يقوِّي أخذك له، وضعف هٰذه المعاني في قلبك ممَّا يُضعف أخذك له، وإنَّ النَّاس في العلم لا يتفاضلون بأحْسَابهم وأنسابهم وأموالهم ولٰكِن يتفاضلون بمقدار نيَّاتهم ومقاصدهم، روى ابن عساكر في حفظ العلم وغيره عن ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- قال: إنَّما يحفظ الرَّجل على قدر نيَّته. أي إنَّما تكون للمرء قدرة قويَّة في العلم على قدر نيَّته، ومن صدقت نيَّته وصحَّت جعل الله عزَّ وجلَّ له من القُدَر والمواهب ما ليس لغيره، ومن فسدت نيَّته فإنَّ الله ﷻ يسلبه القُدَر التي يعرفها من نفسه، فإنَّ العلم لا يؤخذ بقوَّة الحفظ وجودة ذهن، ولا بميراثٍ عن أبٍ وجدٍّ، ولكنّه هبة إلٰهيّة واختصاصٌ ربَّاني، فعلى قدر ما في قلبك من هٰذه المعاني يخصُّك الله ﷻ بما شاء من فضل وبيانٍ.))

البَيِّنَةُ الثَّانِيَةُ

الْعَزْمُ مَرْكَبُ الصَّادِقِينَ، وَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عَزِيمَةٌ لَمْ يَفْرَحْ بِغَنِيمَةٍ، فَإِنَّ الْعَزَائِمَ جَلَّابَةُ الْغَنَائِمِ، فَاعْزِمْ تَغْنَمْ، وَإِيَّاكَ وَأَمَانِيَّ(١) البَطَّالِينَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الْفَوَائِدِ»(٢): (إِذَا طَلَعَ نَجْمُ الهِمَّةِ فِي ظَلَامِ لَيْلِ الْبَطَالَةِ، وَرَدِفَهُ قَمَرُ الْعَزِيمَةِ، أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا).

وَإِنَّمَا يَحُلُّ عُقْدَةَ الْعَزْمِ ثَلَاثُ أَيْدٍ:

أَوَّلُهَا: إِلْفُ الْعَوَائِدِ، مِمَّا جَرَى عَلَيْهِ الْخَلْقُ فِي رُسُومِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ.

وَثَانِيهَا: وَصْلُ الْعَلَائِقِ، وَهِيَ تَعَلُّقَاتُ الْقَلْبِ وَصِلَاتُهُ.

وَثَالِثُهَا: قَبُولُ الْعَوَائِقِ، مِنَ الْحَوَادِثِ الْقَدَرِيَّةِ الَّتِي تَكْتَسِحُ الْعَبْدُ مِنْ قِبَلِ غَيْرِهِ.

فَإِنَّ لَهُنَّ سُلْطَانًا عَلَى النَّفْسِ يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ مَطْلُوبِهِ، وَيُقْعِدُهُ عَنْ مَرْغُوبِهِ، لَا يُدْفَعُ إِلَّا بِحَسْمِ مَادَّتِهِنَّ.

فَالْعَوَائِدُ تُحْسَمُ بِالْهَجْرِ، وَالْعَلَائِقُ تُحْسَمُ بِالْقَطْعِ، وَالْعَوَائِقُ تُحْسَمُ بِالرَّفْضِ، فَمَنْ هَجَرَ الْعَوَائِدَ وَقَطَعَ الْعَلَائِقَ وَرَفَضَ الْعَوَائِقَ فَهُوَ سُلْطَانُ نَفْسِهِ. وَحُسَامُ النُّفُوسِ أَجَلُّ مِنْ حُسَامِ الرُّؤُوسِ.

وَتُمَدُّ قُوَّةُ الْعَزْمِ ثَلَاثَةُ مَوَارِدَ:

أَوَّلُهَا: مَوْرِدُ الْحِرْصِ عَلَى مَا يَنْفَعُ.

وَثَانِيهَا: مَوْرِدُ الاسْتِعَانَةِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَثَالِثُهَا: مَوْرِدُ خَلْعِ ثَوْبِ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ.

وَهُنَّ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ(٣)»(٤)، فَجُمْلَةُ الثَّلَاثِ مَنَابِعُ الْمَوَارِدِ، وَاحِدًا وَاحِدًا؛ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ.

وَمِمَّا يُحَرِّكُ الْعَزَائِمَ إِدْمَانُ مُطَالَعَةِ سِيَرِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَالاعْتِبَارُ

---

(١) أماني بالتخفيف لغة قليلة، والكثيرة أمانيّ بالتشديد.

(١) ص ٥١.

(٣) تعجَز بالفتح صحيحة، لٰكِن الأفصح تعجِز بالكسر.

(١) أخرجه مسلم في (٤٧) ك: القدر، (٨) ب: في الأمر بالقوّة وترك العَجْز، رقم (٦٩٤٥)، من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

بِحَالِهِمْ، وَتَعَرُّفُ مَصَاعِدَ هِمَمِهِمْ يُثَوِّرُ عَزْمَتَكَ، وَيُقَوِّي شَكِيمَتَكَ، فَلَا تَحْرِمْ نَفْسَكَ مِنْ آثَارِهِمْ، وَطَالِعْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنْ سِيَرِهِمْ.

ذكر المصنِّفُ وفَّقه الله في (**البيِّنَة الثَّانية**) أنَّ (الْعَزْمَ مَرْكَبُ الصَّادِقِينَ) والمرادُ بالعزم الإرادةُ الجازمة، فإذا وُجدت الإرادةُ الجازمةُ في القلب فإنَّها مركبٌ يُبلِّغ الصَّادقَ إلى مراده، (وَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عَزِيمَةٌ لَمْ يَفْرَحْ بِغَنِيمَةٍ)، فإنَّ النَّفسَ إذا أقبلت على الشَّيءِ ثم تراخت عنه ثم تولَّت، فذلك سلبُ غنيمتها، وإذا جُمعت إرادتها على مطلوبها أحرزت غنيمتها، (فَإِنَّ الْعَزَائِمَ جَلَّابَةُ الْغَنَائِمِ(( ) فإنَّما يدرك المرء غنيمته من مطلوبه من أمر الدِّين والدُّنيا بحسب عزيمته ())، فَاعْزِمْ تَغْنَمْ، وَإِيَّاكَ وَأَمَانِيَّ البَطَّالِينَ)؛ ((الفارغين الذين يتسلَّون بالأماني دون جدٍّ وعملٍ)) لأنَّ: (أمانيَّ البطالين هي رؤوسُ أموال المفاليس) كما قالَ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالى. ((والبطَّال يُحجب عنه العلم كما قال سحنون:

لا يَنال العلمَ بطَّالٌ ولا كَسِلٌ ولا مَلُول ولا من يألف البشرا))

ثم ذكَر من قول ابن القيم في كتاب «الفوائد» قوله: (إِذَا طَلَعَ نَجْمُ الهِمَّةِ) أي همَّةُ النَّفس (فِي ظَلَامِ لَيْلِ الْبَطَالَةِ، وَرَدِفَهُ قَمَرُ الْعَزِيمَةِ، أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) أي تحقَّق للعبدِ مقصودُه، فإذا جمعَ المرءُ في نفسه الهمَّةَ والعزيمةَ حقَّقَ مطلوبَه الذي يرومهُ ((أشرقت أرضُ قلبه بنور ربِّها بما يجعل الله عزَّ وجلَّ فيه من الخير والبركة)).

ثم ذكر أنَّ الإرادةَ الجازمة تُحَلُّ بورودِ أيدٍ مفسدةٍ عليها:

(أَوَّلُهَا: إِلْفُ الْعَوَائِدِ) أي العاداتُ التي ترسَّمها النَّاسُ وارتضوها، ممَّا جرى عليه الخلق في رسومهم وأحوالهم؛ فإنَّ الإلفَ قيدٌ.

(وَثَانِيهَا: وَصْلُ الْعَلَائِقِ، وَهِيَ تَعَلُّقَاتُ الْقَلْبِ وَصِلَاتُهُ) ممَّا يجدِهُ المرءُ في باطنه ممَّا تميلُ إليه النفسُ وتشتهيه وتطلبه.

(وَثَالِثُهَا: قَبُولُ الْعَوَائِقِ، مِنَ الْحَوَادِثِ الْقَدَرِيَّةِ الَّتِي تَكْتَسِحُ الْعَبْدُ مِنْ قِبَلِ غَيْرِهِ) أي هي الحوادثُ الخارجيَّة التي تعرضُ في طريقِ قاصدِ أمرٍ ما.

ثم ذكرَ أن لهؤلاءِ الثلاث (سُلْطَانًا عَلَى النَّفْسِ يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ مَطْلُوبِهِ، وَيُقْعِدُهُ عَنْ مَرْغُوبِهِ، لَا يُدْفَعُ إِلَّا بِحَسْمِ مَادَّتِهِنَّ) أي قطعِها واستئصالها بالكلِّيَّة.

ثم ذكرَ ما تُحسمُ كلُّ واحدةٍ منهنَّ، فذكر أنَّ (الْعَوَائِدُ تُحْسَمُ بِالْهَجْرِ) فما ألفهُ النَّاسُ ورضوهُ من أحوالهم

ورسُومهم وعاداتهم إنَّما يُقطعُ بهجرِه ((وتَرْكِه ومفارقته)) ومصارمته.

وأمَّا (الْعَلَائِقُ تُحْسَمُ بِالْقَطْعِ) أي بعدمِ مواصلتها ونزعها من النَّفس، فإذا كانت نفسُك ميَّالةً إلى الفُرجةِ والنُّزهة والخُلطة والعشرة مع الخلق فإنَّ ممَّا يحسمُ هٰذه المادةَ في قلبك أن تقطعها قطعًا وتصرِمَها صرمًا.

ثمَّ ذكر أنَّ (الْعَوَائِقَ) وهي الحوادثُ ((القدرية)) الخارجية التي تطرأُ على العبد (تُحْسَمُ بِالرَّفْضِ) وهو عدمُ الإجابةِ إليها والاستسلام لها.

(فَمَنْ هَجَرَ الْعَوَائِدَ وَقَطَعَ الْعَلَائِقَ وَرَفَضَ الْعَوَائِقَ فَهُوَ سُلْطَانُ نَفْسِهِ. وَحُسَامُ النُّفُوسِ أَجَلُّ مِنْ حُسَامِ الرُّؤُوسِ.) أي أنَّ قُدرةَ العبد على صَرْمِ هٰذه المعاني بالحسم من نفسه أجلُّ من حُسام الرُّؤوس الذي يفخر به الملوك، فإن الملوكَ يفخرون بسلطانهم وبطشهم؛ ولٰكِن الفخرَ على الحقيقة هو من يملكُ أمرَ نفسه ويحسمُ عنها الشُّرور الواردةَ عليها من العوائد والعوائق والعلائق.

ثم ذكر أنَّ (قُوَّةَ الْعَزْمِ) وهي الإرادةُ الجازمةُ ((بالنَّفس)) تقوى بإمدادها بـ(ثَلَاثَةِ مَوَارِدَ) هي بمنزلةِ الينابيعَ التي متى وصلت إلى الإرادةِ الجازمة قوَّتها، فـ(أَوَّلُهَا: مَوْرِدُ الْحِرْصِ عَلَى مَا يَنْفَعُ)، فإذا كان الإنسانُ حريصًا على ما ينفعهُ قوَّى ذلك عزمَه (وَثَانِيهَا: مَوْرِدُ الاسْتِعَانَةِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ) لأنَّكَ لا تكونُ إلَّا به، فإنَّ العبدَ بقواه لا يكونُ شيئًا، وإذا وُكِلَ العبد إلى نفسه خُذِل، وإنَّما يرفعُه من الخذلان إلى التَّوفيق هو استعانتهُ بربِّه ﷻ، ولهٰذا كان سرُّ القرآن هو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ لأنَّ المرءَ فيهما يتخلَّى من آفتين عظيمتين هما الرِّياءُ والكبرياءُ، قال أبو العباس ابن تيميةَ الحفيد: (﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفعُ داء الرِّياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفعُ داء الكبرياء). انتهى كلامه، نقلهُ تلميذه ابن القيم، في «مدارج السَّالكين».

ثم ذكر الموردَ الثَّالث وهو (خَلْعُ ثَوْبِ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ) فإنَّ المرءَ إذا أرادَ أن تقوى عزيمته، فحقيقٌ به أن يخلعَ قميصَ العجزِ والكسل من نفسه وأن يُجرِّدها منه، فإنَّه ما حُجبت المطالبُ العظيمة بمثل العجز والكسل، وكم من امرئٍ تكونُ له قدرةٌ على تحصيل مطلوبٍ؛ ولٰكِن العجزَ والكسل يعتوِرانه و يعتريانه حتى يتركَ ذلك المقصودَ المؤمَّل وينقطعَ عنه.

ثم ذكر أنَّ هٰذه المواردَ المقوِّيةَ للعزم مذكورةٌ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلمٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: («احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجِزْ» فَجُمَلُهُ الثَّلَاثُ مَنَابِعُ الْمَوَارِدِ، وَاحِدًا وَاحِدًا؛ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ) ((فإنَّ الجملة الأولى دالَّة على المورد الأوَّل، والجملة الثَّانية دالَّة على المورد الثَّاني، والجملة الثَّالثة دالَّة على المورد

الثَّالث)) والقُذَّة ريشةُ السَّهم، والسَّهمُ يكون له في آخره ريشٌ يُوضع لإعانته على إصابةِ هدفه، فهٰذا الرِّيش الذي يكون في آخرِه يقال: (حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالقُذَّةِ) أي أنَّهما متناضرتان متحاذيتان لا فرقَ بينهما.

ثم ذكرَ ((في خاتمة هٰذه البيِّنة)) أنَّ (مِمَّا يُحَرِّكُ الْعَزَائِمَ إِدْمَانُ مُطَالَعَةِ سِيَرِ الْـمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ) فإنَّ المرءَ ربَّما فترَ في سيرهِ وضَعُفَ في مشيه، (ومن استطالَ الطَّريقَ ضَعُفَ مشيه) كما قال ابن القيم، وممَّا يُحرِّك عزيمته ويُقوِّي نفسهُ في إدراك طلبته هو إدمانُهُ النَّظر في سِيَر المنعم عليهم من النَّبيين والعُلماءِ والشُّهداء والصَّالحين، فإنَّ أنفعَ شيءٍ للمرء في المبادئ هو نظرهُ في سير المقتدى بهم؛ لأنَّ النَّفس مطبوعةٌ على مشاكلةِ الخلق، قال مالكُ بن دينار: (النَّاسُ كأسراب القطا يُشبه بعضهم بعضًا). رواه اللالكائيّ وابن بطة، وجاءَ معناه في كلام أبو العباس ابن تيمية الحفيد رحمه الله تعالى.

فالمرءُ من رأى من شِكله وخلَّانه من يكونُ على تلك الحال اقتدى به، فإذا طالعَ سير السَّلف الماضين تقوَّت نفسهُ في طلب الاقتداء بهم.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «صيد خاطره»: (لا أجدُ لطالب العلم ((شيئًا)) أنفعَ من النَّظر[1] في سير السَّلف ((السَّابقين))). ((ثم قال: (ولأجل ذلك أفردتُ كتبًا في سير جماعة منهم) ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه كتب سيرة مفردة للحسن البصري، ومعروف الكَرخي، وسعيد بن المسيب، وأحمدَ بن حنبل رحمهم الله تعالى وغفر لهم))، يعني بعد النَّظرِ في العلوم الأصليَّة من الكتاب والسُّنّة، وأرادَ بذلك ما يكون موجبًا لتحريك العزيمةِ وتقويةِ الهمَّة، فإنَّ (الاعْتِبَارُ بِحَالِهِمْ، وَتَعَرُّفُ مَصَاعِدَ هِمَمِهِمْ يُثَوِّرُ عَزْمَتَكَ، وَيُقَوِّي شَكِيمَتَكَ) يعني أنَفتَكَ (فَلَا تَحْرِمْ نَفْسَكَ مِنْ آثَارِهِمْ، وَطَالِعْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنْ سِيَرِهِمْ.)

۞۞۞۞

(١) ((مطالعة)).

البَيِّنةُ الثَّالِثةُ

التَّبَحُّرُ فِي الْعِلْمِ فَضِيلَةٌ، وَالْـمُشَارَكَةُ فِي كُلِّ فَنٍّ غَنِيمَةٌ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللهُ تعالى: (كُنْتُ آخُذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ طَرَفًا، فَإِنَّ سَمَاعَ الْإِنْسَانِ قَوْمًا يَتَحَدَّثُونَ، وَهُوَ لَا يَدْرِي مَا يقولُ غُمَّةٌ عَظِيمَةٌ).

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ حَزْم كَتِيبَةُ الْأَنْدَلُسِيِّينَ – عَقِبَ ذِكْرِهِ لَهُ -: (وَلَقَدْ صَدَقَ)(١).

وَمَا أَحْسَنَ عِنْدَ أَهْلِ الذَّوْقِ وَالْوَجْدِ مِنْ طُلَّابِ الْـمَعَانِي قَوْلُ ابْنِ الْوَرْدِيِّ:

مِنْ كُلِّ فَنٍّ خُذْ وَلَا تَجْهَلْ بِهِ ... فَالْحُرُّ مُطَّلِعٌ عَلَى الْأَسْرَارِ

وَيَقْبُحُ بِالْـمَرْءِ أَنْ تَكُونَ لَهُ قُدْرَةٌ وَلَيْسَتْ لَهُ هِمَّةٌ، فَيَقْعُدُ عَنِ اسْتِنْبَاطِ عِلْمٍ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، وَيَتَبَاعَدُ عَنْهُ مَعَ قُرْبِ طَرِيقِ وُصُولِهِ إِلَيْهِ.

وَهٰذَا ضَرْبٌ مِنَ الْـحِرْمَانِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ خَيْرٌ، وَإِنَّ الْـمُؤْمِنَ لَا يَشْبَعُ مِنَ الْـخَيْرِ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ إِلَى أَصْلِهِ الزَّخَّارِ وَمَنَازِلِهِ الْأُولَى.

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا ... مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْـمُخَيَّمُ

وَمِنْ خَصَائِصِ عُلُومِ الدِّيَانَةِ ارْتِبَاطُ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ فَمَحِلُّهَا إِلَى النُّورَيْنِ: الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وَهُمَا وَحْيٌ مِنَ اللهِ، فَإِذَا كَانَ الْـمَنْبَعُ وَاحِدًا كَانَ الارْتِبَاطُ وَاضِحًا.

قَالَ الزَّبِيدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى فِي «أَلْفِيَّةِ السَّنَدِ»:

فَإِنَّ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ تَخْتَلِطْ ... وَبَعْضُهَا بِشَرْطِ بَعْضٍ مُرْتَبِطْ

وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهَا بِالاقْتِصَارِ عَلَى فَنٍّ وَاحِدٍ دُونَ تَحْصِيلِ أُصُولِ بَقِيَّةِ الْفُنُونِ: مِنْ آثَارِ الاقْتِدَاءِ بِعُلُومِ أَهْلِ الدُّنْيَا الَّتِي سَرَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْـمُشْتَغِلِينَ بِعُلُومِ الشَّرِيعَةِ.

وَثُبُوتُ الْقَدَمِ عَلَى الصِّرَاطِ الْأَتَمِّ هُوَ فِي تَحْصِيلِ أُصُولِ الْفُنُونِ دُونَ اتِّسَاعٍ فِيهَا، ثُمَّ التَّشَاغُلُ بِمَا شَاءَ الْعَبْدُ مِنْهَا، مِمَّا وَجَدَ قُوَّتَهُ فِيهِ، وَقُدْرَتَهُ عَلَيْهِ.

أَمَّا بُلُوغُ الْغَايَةِ وَحُصُولُ الْكِفَايَةِ فِي عُلُومِ الدِّيَانَةِ جَمِيعًا فَلَيْسَ مُتَهَيِّئًا لِكُلِّ أَحَدٍ، بَلْ يَخْتَصُّ بِهِ اللهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، وَمُلَاحَظَةُ الاخْتِصَاصِ تُهَوِّنُ الْـمُغَامَرَةَ فِيهِ وَتَجَشُّمُ الْعَنَاءِ حَتَّى يَنَالَ الْـمُنَى.

لَأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ الْـمُنَى ... فَمَا انْقَادَتِ الْآمَالُ إِلَّا لِصَابِرِ

ذكر المصنِّف وفَّقه الله في (**البَيِّنةُ الثَّالِثة**) أنَّ (التَّبَحُّرَ فِي الْعِلْمِ فَضِيلَةٌ) يعني التَّوسَّع فيه، فإنَّ التَّبحُّرَ تفعُّلُ من البحر، وهٰذا الأصلُ موضوعٌ في كلام العرب للاتِّساع، ومنه سُمِّي الماءُ الكثيرُ بحرًا، ولو كان عذبًا، فذكرَ أنَّ التَّوسُّعَ في العلمِ فضيلة، وأنَّ (الْـمُشَارَكَة فِي كُلِّ فَنٍّ غَنِيمَةٌ).

وذكرَ كلامَ يحيى بن مجاهد رَحِمَهُ اللهُ أنَّه كان يقول: (كُنْتُ آخُذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ طَرَفًا) أي قدرًا معرَّفًا به (فَإِنَّ سَمَاعَ

(١) انظر: رسالة «مراتب العلوم» المسرودة في مجموع رسائل ابن حزمٍ ٤/ ٧٢.

الْإِنْسَانِ قَوْمًا يَتَحَدَّثُونَ، وَهُوَ لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ) أي ما يقول بينهم (غُمَّةٌ عَظِيمَةٌ) أي يلحقهُ بسبب ذلك غُمَّةٌ عظيمةٌ.

وقد ذكر هٰذا ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في رسالةٍ من رسائلهِ الوجيزة المذكورةِ في ضمن مجموعِ ابن حزم المعروف، ثم قالَ بعد ذلك: (وَلَقَدْ صَدَقَ) أي صدقَ في قولهِ أنَّ المرءَ إذا سمعَ أناسًا يتحدَّثون في أمرٍ ما، ومنه حديثهم في فنٍّ من الفنون ثمَّ يكونُ بينهم غير مدركٍ لما يقولون ولا عارفٍ بها يتكلَّمون، فإنَّه تلحقهُ (غُمَّةٌ عَظِيمَةٌ) فإنَّ النَّفسَ الحرَّةَ الشَّريفةَ الأبيَّةَ تكرهُ أن تكون في مقام الدُّون، ومن مقام الدُّون أن يفوتَ على المرءِ شيءٌ من العلوم المستعملة، لا يُدرك فيه ما يكونُ عونًا على إدراكِ مقاصده ومراميه، وقولهُ في وصف ابن حزم: (كتيبةُ الأندلسيِّين) أي بمنزلةِ الكتيبةِ من الجيش لكثرةِ علمه وجلالةِ فضله رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثمَّ ذكر أنَّ من الأبيات الممدوحة (عِنْدَ أَهْلِ الذَّوْقِ وَالْوَجْدِ مِنْ طُلَّابِ الْـمَعَانِي قَوْلُ ابْنِ الْوَرْدِيِّ:

مِنْ كُلِّ فَنٍّ خُذْ وَلَا تَجْهَلْ بِهِ فَالْحُرُّ مُطَّلِعٌ عَلَى الْأَسْرَارِ)

((ووصف استحسانه عند أهل الذَّوق والوَجد)) والذَّوقُ والوجدُ من طرائقِ[1] إدراك الحقائقِ القلبيَّة، فكما أنَّ الحقائقَ الظَّاهرةَ تُدركُ بحواسٍ توصل إليها ((كالسَّمع والبصر)) فإنَّ الحقائق القلبيَّة الباطنة تُدركُ بطرائق منها الذَّوق والوجد، وهما مذكورانِ في أحاديثِ النَّبيِّ ﷺ ففي حديث العبَّاس في «صحيح مسلم»: «ذاقَ طعمَ الإيمان» الحديث، وفي «الصَّحيحين» من حديث أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجدَ بهنَّ طعمَ الإيمان» فهذان اللّفظان ليسا أجنبيَّان عن علمِ الشَّريعة؛ بل هما من آلاتِ إدراكِ الحقائقِ القلبيَّة، فإذا وجدَ المرءُ الحالَ الإيمانية فإنَّما يجدُها بذوقٍ أو وَجْدٍ أو غير ذلك من الأحوال المذكورة في الشَّرع، لا ما تكلَّمَ به أصحاب الخطرات والوساوس.

ثم ذكر أنَّه (يَقْبُحُ بِالْـمَرْءِ أَنْ تَكُونَ لَهُ قُدْرَةٌ وَلَيْستْ لَهُ هِمَّةٌ، فَيَقْعُدُ عَنِ اسْتِنْبَاطِ عِلْمٍ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، وَيَتَبَاعَدُ عَنْهُ مَعَ قُرْبِ طَرِيقِ وُصُولِهِ إِلَيْهِ)، ((فله قدرة تمكِّنه من إحراز العلوم المقصودة، ولٰكن همَّته ضعيفة لا تبعثه إلى طلب تلك العلوم، فيتباعد منها مع قدرته عليها)) وفي ذلك قال المتنبِّي:

ولم أرَ في عيوب النَّاس عيبًا كنقصِ القادرين على التَّمام

فمن كانت له قدرةٌ على شيءٍ، فحقيقٌ به أن يجتهدَ في طلبه، أمَّا التَّقاعدُ عنه مع القدرةِ عليه فهو (ضَرْبٌ مِنَ

(١) ((مرتبتان من مراتب)).

الْحِرْمَانِ(() ومن الأمور التي تحول بين العبد وبين العلم أو يكتب له الحرمان، ولأجل هٰذا خاف العارفون بالله وبشرعه من الحرمان، كما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ تعالى:

والعلم يدخل قلبَ كلِّ موفق بلا بواب ولا استئذان

ويردُّه المحروم من خذلان لا تُشقنا اللّٰهمَّ من حرمان.

وعلَّل ذلك بـ[قوله]: ())، فَإِنَّ الْعِلْمَ خَيْرٌ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَشْبَعُ مِنَ الْخَيْرِ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ إِلَى أَصْلِهِ الزَّخَّارُ وَمَنَازِلِهِ الْأُولَى) يعني جنَّاتِ عدن جعلني اللهُ وإيَّاكم من أهلها ((فإذا ضعفت همَّة العبد عن هٰذا المطلوب كان ذلك من دلائل حرمانه)).

ثمَّ أوردَ المصنِّفُ تصديقَ ذلك قولَ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «ميميته»:

(فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ)

ثمَّ ذكرَ أنَّ ممَّا يدعو إلى الإصابةِ من كلِّ علمٍ بطرف أنَّ (مِنْ خَصَائِصِ عُلُومِ الدِّيَانَةِ ارْتِبَاطُ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ فَمَحِلُّهَا) يعني مردُّها ومَرجِعُها (إِلَى النُّورَيْنِ: الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وَهُمَا وَحْيٌ مِنَ اللهِ، فَإِذَا كَانَ الْمَنْبَعُ وَاحِدًا كَانَ الارْتِبَاطُ وَاضِحًا) فإذا كانت علومُ الكتابِ والسُّنَّة ترجع إلى أصلٍ واحدٍ؛ فلابد أن تكون تلك العلومُ مترابطةً، ولا ينبلُ في علمٍ منها إلَّا من أصابَ بقدرٍ حسنٍ من كلِّ علمٍ من علومها، أو ما يكونَ خادمًا لعلومها، وأوردَ المصنِّفُ في بيان هٰذا المعنى قول الزَّبيدي (فِي «أَلْفِيَّةِ السَّنَدِ»:

فَإِنَّ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ تَخْتَلِطْ وَبَعْضُهَا بِشَرْطِ بَعْضٍ مُرْتَبِطْ)

أي أنَّ بعضها آخِذٌ بأعناقِ بعض متَّصلٌ به، ولا تُوجدُ في الشَّريعة علومٌ مبتورةٌ عن بعضها البعض، فلا يكون المرءُ حاذقًا في التَّفسير وليست له معرفةٌ في الحديث، ولا يكون المرءُ حاذقًا في الحديث وليس له معرفةٌ في الفقه، وقل هكذا في سائرِ علوم الشَّريعة؛ لٰكن الجادَّة المأمونة للوصول إلى ذلك هي أن يشتغلَ الإنسانُ بتحصيلِ أصلٍ نافع في كلِّ فنٍّ من الفنون وهو الذي أرشدَ إليه بعدُ بقوله: (وَثُبُوتُ الْقَدَمِ عَلَى الصِّرَاطِ الْأَتَمِّ هُوَ فِي تَحْصِيلِ أُصُولِ الْفُنُونِ دُونَ اتِّسَاعٍ فِيهَا، ثُمَّ التَّشَاغُلُ بِمَا شَاءَ الْعَبْدُ مِنْهَا، مِمَّا وَجَدَ قُوَّتَهُ فِيهِ، وَقُدْرَتَهُ عَلَيْهِ) فيشتغلُ الطَّالبُ في مبادئِ أمره بتحصيل أصلٍ معتمدٍ في كلِّ فنٍّ من الفنون الدَّائرةِ في فلك علومِ الشَّريعة الأصليَّةِ والآليَّة، ثمَّ إذا أتقنَ ذلك ترشَّحَ بعدُ لما يرى فيه قوَّته وهمَّتهُ ومحبَّتهُ، فإذا حصَّل أصلًا في علم التَّفسير، وأصلًا في علم الفقه، وأصلًا في علم الحديث، وأصلًا في علم الاعتقاد، وأصلًا في علم النَّحو، وأصلًا في علم الأصول، وأصلًا في علم

المصطلح.. وغيرها من علوم الشَّريعة الأصليَّةِ والآليَّة، فإنَّه بعد تحصيلِهِ هٰذه الأصول ينظرُ ميلَ قلبه وطِلبة نفسه وما يجدُ فيه قوَّته، ثم ينصرفُ إليه بالكلِّيَّة، فإنَّ العلومَ تُقسمُ على هٰذه الطَّريقة، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾[الزخرف:٣٢]، ومن قسمةِ هٰذه المعيشة قسمتهُ معيشةَ قلوبهم، وكثيرٌ من النَّاس لا يفهمُ من الآية إلَّا قسمةَ أرزاقهم في حظوظ أبدانهم، والله عزَّ وجلَّ كما قسمَ حظوظ الأبدان قسَم حظوظ الأرواح، وحظوظ الأرواحِ العلوم، وزكاةُ النَّفس هو في تحصيلِ أصلٍ معتمدٍ في كلِّ فنٍّ من الفنون المستعملة، ثم ينظرُ المرء بعد ذلك ما يكون فيه قوَّتُه وطِلبته وإقباله فيُقبل عليه.

(أَمَّا بُلُوغُ الْغَايَةِ وَحُصُولُ الْكِفَايَةِ فِي عُلُومِ الدِّيَانَةِ جَمِيعًا فَلَيْسَ مُتَهَيِّئًا لِكُلِّ أَحَدٍ) أي أنَّ النَّباهةَ والإدراكَ في علوم الشَّريعة جميعًا حَديثًا وتفسيرًا وفقهًا واعتقادًا وأصولًا ونحوًا لا يكونُ لكلِّ أحدٍ؛ بل يختصُّ الله عزَّ وجلَّ به من يشاءُ من خلقه، وإذا كان هٰذا خصِّيصَةً إلهيَّة وعنايةً ربَّانية فإنَّه جديرٌ بأن تهونُ المغامرةُ فيه، وأن يتجشَّمَ المرءُ العناء في طلبه حتَّى يُدركَ مناه كما قال الشَّاعر:

(لأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ الْـمُنَى فَـمَا انْقَـادَتِ الْآمَـالُ إِلَّا لِصَـابِرِ)

والمقصودُ أنَّ تعرفَ أنَّ الجادَّة التي تُوصلك إلى العلمِ النَّافع هو أن تشتغلَ مدَّةً من عُمُرك هي تصلُ إلى عشرِ سنوات تُدرك فيها أصلًا معتمدًا على وجهِ التَّصوُّر الصَّحيح، فتُدرك أصلًا معتبرًا في التَّفسير، وأصلًا معتمدًا في الفقه، وأصلًا معتمدًا في الحديث.. وغيرها من العُلومِ الأصلية والآلية، فإذا فرغتَ من هٰذا حفظًا وفهمًا تنظرُ إلى ميل قلبك، فإنَّك ربَّما تجدُ نفسك مائلًا إلى علم الاعتقاد، أو مائلا إلى علم الفقه، أو مائلا إلى علم النَّحو، أو مائلا إلى علم الأصول، فعندَ ذلك تجعلُ وقتك فيه، وإذا مرَّت بك حينئذٍ مسائلُ ممَّا يتعلقُ ببقية العلوم فإنَّكَ ستكونُ مُدركًا لها، أمَّا من لا يتَّخذُ هٰذه الجادَّة فإنَّه سيكونُ ضُحكةً للعارفين، فكم من إنسانٍ تراهُ يتكلَّمُ في التَّفسير؛ لكنَّه لا يُحسنُ الحديث ولا يحسنُ الاعتقاد، فربَّما فسَّرَ آياتِ القرآن الكريم وَفقَ معتقداتٍ تُخالفُ اعتقادهُ هو لكن لجهله بحقيقةِ الاعتقاد الصَّحيح، وعدم تمهُّرِهِ في معرفةِ ما ينبغي عليه منه وقع في مثل هٰذا، وتجدُ آخرَ يمهرُ في الحديث وينبلُ فيه؛ لكنك إذ سألته فيما يحتاجُ النَّاس إليه من الحلال والحرام ممَّا هو مطلوبٌ منه في عبادته ربَّه ﷻ لن تجد له علمًا، ربَّما رأيت حاذقًا في علم القراءات؛ لكنه لا يحسنُ وضوءَهُ وصلاته؛ وهٰذا عيبٌ عند الله قبل أن يكون عيبًا عند الخلق، فكيف يشتغلُ المرء بتحقيق الحروف وينسى تحقيق عبادته لله ﷻ ((أمَّا أن يظنَّ العبد أنَّه جمع نفسه على علمٍ واحدٍ فسيبرِّز وسيلحق مراتب الأوَّلين! فهي من آمال البطَّالين، فإنَّ الإنسان لا يكون مفسِّرًا

وهو لا يعي الطريق إلى معرفة الأحاديث المرويَّة بالتَّفسير، وكيفية الوقوف على مراتبها من التَّصحيح والتَّضعيف، وليس بالضَّرورة أن يكون محدِّثا، تكون له قدرة على الحكم على المرويَّات من حيث الصِّحَّة والضَّعف؛ لٰكِن ينبغي أن تكون له قدرة على معرفة الطَّريق التي يصل بها إلى معرفة الصَّحيح والضَّعيف من الحديث النَّبوي، فالمفسِّر الذي يأتي فيذكر أحاديث، ثم يعزوها إلى كتاب متأخِّر كـ«الجامع الصَّغير» أو «الجامع الأزهر» أو غيرهما، ويكون ذلك الحديث للبخاري أو لمسلم فذلك رجل لم يشمَّ رائحة الحديث، وكذلك الذي يتكلَّم في الفقه وهو لا يعرف أصول الفقه لا يمكن أن يكون فقيهًا مبرِّزًا، وكذلك النَّحوي الذي لا يعرف بقيَّة العلوم العربيَّة من اللُّغة والصَّرف والبلاغة وغيرها لا يمكن أن يكون نحويًّا مقدَّمًا في فنِّه، فالذي ينبغي أن تكون عليه جادَّة الطَّلب أن يحرص الإنسان على تحصيل أصول كل علم، وهي تحتاج إلى مُدَيدة يسيرة، فهي تأخذ من الإنسان سنوات قليلة من الاجتهاد؛ ولٰكِن هٰذه السَّنوات فيهنَّ ما يكون بمنزلة البناء العتيق الذي يؤسَّسُ العلم الصَّحيح.))

لٰكِن من الأمور التي ولَّدت هٰذا عند النَّاس هو جهلُهم بالطَّريق الموصل إلى العلم الصَّحيح، وعدُولهم عن هٰذه الجادَّة إلى رسومٍ وضعوها وأحوالٍ امتطوْها صرفتهم عن جادةِ العلم الصَّحيح، وإعادةُ النُّفوسِ إلى العلم الصَّحيح وجادته تحتاجُ إلى مجاهدةٍ ومراغمة، ومن يُسلِّمُ نفسه للإلف لا يفلح، فإنّ من يقول: إنَّ النَّاس مضوا على هٰذه الطَّريقة، أو أنَّ النَّاسَ اليوم لا يستطيعون كذا، فإنَّه أُوتِيَ من حالهِ هو، لا من حال النَّاس، فإنَّ من النَّاسِ من إذا ذكرت لهم أن تحفظ متنًا في النَّحو ومتنًا في الأصول، ومتنًا في القواعد الفقهيَّة، قال: إنَّ الذِّهنَ لا يقبلُ ذلك، وربَّما ذهنه هو لٰكِن الذِّهن الذي خلقه الله عزَّ وجلَّ فيه من القدرةِ على ذلك الشَّيءُ الكثير، وإذا حمل الإنسانُ على نفسهِ واجتهد وفَّقه الله ﷻ إلى ذلك؛ ولٰكِن القلوبَ والأذهان تحتاجُ إلى رياضة كما تحتاجُ الجوارح والأركان، فالإنسانُ لا يستطيعُ أن يُدرك بغيته من القوَّةِ البدنيَّة إلَّا برياضة، وكذلك العلوم لا تُدرك إلَّا برياضةٍ بأخذ النَّفس شيئًا فشيئًا كما سيأتي ذكره في مقام آخر.

البَيِّنَةُ الرَّابِعَةُ

يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَمُّ الطَّالِبِ الْأَعْظَمِ تَحْصِيلَ عُلُومِ الْـمَقَاصِدِ، وَالتَّفَقُّهَ فِي الْوَحْيَيْنِ، فَلَا يَشْتَغِلُ بِغَيْرِهَا إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَقِفُ بِهِ عَلَى مَقَاصِدِ الْعِلْمِ الْـمَنْظُورِ فِيهِ، دُونَ إِدَامَةِ نَظَرٍ تُبَلِّغُهُ غَوْرَهُ، فَإِنَّ الْعُلُومَ الْآلِيَّةَ كَثِيرَةُ الْعَدَدِ، ثَقِيلَةُ الْعُدَدِ، وَهِيَ لِلْعِلْمِ بِمَنْزِلَةِ الْـمِلْحِ لِلطَّعَامِ إِنْ زَادَ سَاءَ وَإِنْ نَقَصَ سَاءَ.

قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْـمُقَدِّمَةِ»[١]: (اعْلَمْ أَنَّ الْعُلُومَ الْـمُتَعَارَفَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمْرَانِ عَلَى صِنْفَيْنِ:

- عُلُومٌ مَقْصُودَةٌ بِالذَّاتِ؛ كَالشَّرْعِيَّاتِ،
- وَعُلُومٌ هِيَ آلَةٌ وَوَسِيلَةٌ لِـهَٰذِهِ الْعُلُومِ.

فَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ مَقَاصِدُ فَلَا حَرَجَ فِي تَوْسِعَةِ الْكَلَامِ فِيهَا، وَتَفْرِيعِ الْـمَسَائِلِ، وَاسْتِكْشَافِ الْأَدِلَّةِ وَالْأَنْظَارِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ طَالِبَهَا تَمَكُّنًا مِنْ مَلَكَتِهِ، وَإِيضَاحًا لِـمَعَانِيهَا الْـمَقْصُودَةِ.

وَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ آلَةٌ لِغَيْرِهَا – مِثْلُ الْعَرَبِيَّةِ وَالْـمَنْطِقِ وَأَمْثَالِهَا – فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا إِلَّا مِنْ حَيْثُ هِيَ آلَةٌ لِذَلِكَ الْغَيْرِ فَقَطْ، وَلَا يُوَسَّعُ فِيهَا الْكَلَامُ وَلَا تُفَرَّعُ الْـمَسَائِلُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُخْرِجٌ لَهَا عَنِ الْـمَقْصُودِ؛ إِذِ الْـمَقْصُودُ مِنْهَا مَا هِيَ آلَةٌ لَهُ لَا غَيْرَ، فَكُلَّمَا خَرَجَتْ عَنْ ذَلِكَ خَرَجَتْ عَنِ الْـمَقْصُودِ، وَصَارَ الاشْتِغَالُ بِهَا لَغْوًا، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ صُعُوبَةِ الْـحُصُولِ عَلَى مَلَكَتِهَا بِطُولِهَا وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا، وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَائِقًا عَنْ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ الْـمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ؛ لِطُولِ وَسَائِلِهَا، مَعَ أَنَّ شَأْنَهَا أَهَمُّ، وَالْعُمْرُ يَقْصُرُ عَنْ تَحْصِيلِ الْجَمِيعِ عَلَى هَٰذِهِ الصُّورَةِ).ا.هـ

وَلَا يَتَأَتَّى لِلطَّالِبِ الظَّفَرُ بِمَا يُؤَمِّلُهُ مِنْ عُلُومِ الْـمَقَاصِدِ وَالْوَسَائِلِ حَتَّى يَكُونَ:

- نَهَّازًا لِلْفُرَصِ.
- مُبْتَدِئًا لِلْعِلْمِ مِنْ أَوَّلِهِ.
- آتِيًا لَهُ مِنْ مَدْخَلِهِ.
- مُنْصَرِفًا عَنِ التَّشَاغُلِ بِطَلَبِ مَا لَا يَضُرُّ جَهْلُهُ.
- مُلِحًّا فِي ابْتِغَاءِ دَرْكِ مَا اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ، غَيْرَ مُهْمِلٍ لَهُ.

قَالَ الْـمَاوَرْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَدَبِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ»[٢]: (فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَلَّا يَنِيَ فِي طَلَبِهِ، وَيَنْتَهِزَ الْفُرْصَةَ بِهِ،

(١) ص ٣٤٣.

(١) ص٧٦.

فَرُبَّمَا شَحَّ الزَّمَانُ بِمَا سَمَحَ، وَضَنَّ بِمَا مَنَحَ.

وَيَبْتَدِئُ مِنَ الْعِلْمِ بِأَوَّلِهِ، وَيَأْتِيهِ مِنْ مَدْخَلِهِ، وَلَا يَتَشَاغَلُ بِطَلَبِ مَا لَا يَضُرُّ جَهْلُهُ، فَيَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنْ إِدْرَاكِ مَا لَا يَسَعُهُ جَهْلُهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ عِلْمٍ فُضُولًا مُذْهِلَةً، وَشُذُورًا مُشْغِلَةً، إِنْ صَرَفَ إِلَيْهَا نَفْسَهُ قَطَعَتْهُ عَمَّا هُوَ أَهَمُّ مِنْهَا).ا.هـ

ثُمَّ قَالَ:

(وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْعُوَهُ ذَلِكَ إِلَى تَرْكِ مَا اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ، إِشْعَارًا لِنَفْسِهِ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ فُضُولِ عِلْمِهِ، وَإِعْذَارًا لَهَا فِي تَرْكِ الاشْتِغَالِ بِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَطِيَّةُ النَّوْكَى[١]، وَعُذْرُ الْـمُقَصِّرِينَ.

وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الْعِلْمِ مَا تَسَهَّلَ، وَتَرَكَ مِنْهُ مَا تَعَذَّرَ، كَانَ كَالْقَنَّاصِ: إِذَا امْتَنَعَ عَلَيْهِ الصَّيْدُ تَرَكَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَّا خَائِبًا؛ إِذْ لَيْسَ يَرى الصَّيْدَ إِلَّا مُمْتَنِعًا؛ كَذَلِكَ الْعِلْمُ: طَلَبُهُ صَعْبٌ عَلَى مَنْ جَهِلَهُ، سَهْلٌ عَلَى مَنْ عَلِمَهُ؛ لِأَنَّ مَعَانِيهِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ إِلَيْهَا مُسْتَوْدَعَةٌ فِي كَلَامٍ مُتَرْجِمٍ عَنْهَا، وَكُلُّ كَلَامٍ مُسْتَعْمَلٍ فَهُوَ يَجْمَعُ لَفْظًا مَسْمُوعًا، وَمَعْنًى مَفْهُومًا؛ فَاللَّفْظُ كَلَامٌ يُعْقَلُ بِالسَّمْعِ، وَالْـمَعْنَى تَحْتَ اللَّفْظِ يُفْهَمُ بِالْقَلْبِ)[٢].ا.هـ

ذكرَ المصنِّفُ وفَّقه الله في (**الْبَيِّنَةُ الرَّابِعَةُ**) أنَّه (يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَمُّ الطَّالِبِ الْأَعْظَمَ تَحْصِيلُ عُلُومِ الْـمَقَاصِدِ، وَالتَّفَقُّهِ فِي الْوَحْيَيْنِ)() فإنَّهما منبع العلوم وإليهما يُردُّ العلم الوافر، وبذلك يقول ابن عباس رَحِمَهُ اللهُ تعالى مرجِّزًا:

جميع العلم في القرآن لـكـن تقاصر عنه أفهام الرِّجال

فينبغي أن يكون أعظم وَكَدِ طالب العلم واهتمامِه هو تحصيل المقاصد، والتَّفقُّه في الكتاب والسُّنّة ()، فَلَا يَشْتَغِلُ بِغَيْرِهَا إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَقِفُ بِهِ عَلَى مَقَاصِدِ الْعِلْمِ الْـمَنْظُورِ فِيهِ) أي بقدرِ الخدمة، فإنَّ العلومَ الآليَّة إنَّما تُرادُ للخدمة، فبحسب ما وقَّت به من خدمةِ الفقه للوحيين أُخذ منها ذلك، ((كما قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» بعد ذكر علم الكتاب والسُّنّة: وباقي العلوم إمَّا آلةٌ في فهمها أو أجنبية عنها:

فالأوَّل هو الضَّالَّة المطلوبة.

والثَّاني هو الضَّارَّة المغلوبة. انتهى كلامه))، (دُونَ إِدَامَةِ نَظَرٍ تُبَلِّغُهُ غَوْرَهُ، فَإِنَّ الْعُلُومَ الْآلِيَّةَ كَثِيرَةُ الْعَدَدِ، ثَقِيلَةُ الْعُدَدِ() فهي تحتاج إلى آلة عظيمة من القوى الذِّهنيَّة ())، وَهِيَ لِلْعِلْمِ بِمَنْزِلَةِ الْـمِلْحِ لِلطَّعَامِ إِنْ زَادَ سَاءَ وَإِنْ

---

(١) أي الحمقى.

(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» ص٧٧.

نَقَصَ سَاءَ) ((وكثيرٌ من النَّاس يضيِّع قوَّته في شذورٍ متفرِّقةٍ لا يأتي لها ذِكرٌ ولا ينتفع بها الإنسان في فهم الكتاب والسُّنّة، وأشار إلى طرفٍ منها في علم أصول الفقه الشَّاطبيُّ في «الموافقات» وابن القيم في «إعلام الموقِّعين» ومن عرف العلوم الآليَّة رأى أنَّ كثيرًا من المسائل التي تكون فيها ممَّا يلا يحتاج إليه ولا ينبني عليه عمل)).

ثم ذكر كلامَ ابن خَلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المقدِّمة (أَنَّ الْعُلُومَ الْـمُتَعَارَفَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمْرَانِ عَلَى صِنفَيْنِ:)

أحدهما: (عُلُومٌ مَقْصُودَةٌ بِالذَّاتِ) وهي ما يرادُ الانتفاعُ به. وهي عندنا أهلَ الإسلام العلومُ الشَّرعيَّة.

والآخر: (وَعُلُومٌ هِيَ آلَةٌ وَوَسِيلَةٌ لِـهٰذِهِ الْعُلُومِ) أي العلومُ التي يُرادُ منها إيصالُها إلى النَّافع.

فالعلومُ التي تنفعُ هي العلوم الأصليَّة، وأمَّا العلوم الآليَّة فإنَّها بمنزلةِ السُّلم الموصل إلى ذلك النَّافع، فما كان من علوم المقاصد (فَلَا حَرَجَ فِي تَوْسِعَةِ الْكَلَامِ فِيهَا، وَتَفْرِيعِ الْـمَسَائِلِ، وَاسْتِكْشَافِ الْأَدِلَّةِ وَالْأَنْظَارِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ طَالِبَهَا تَمَكُّنًا مِنْ مَلَكَتِهِ، وَإِيضَاحًا لِـمَعَانِيهَا الْـمَقْصُودَةَ.()) فلا يُعاب على أحد طول التماسه ما في الكتاب والسُّنّة من الاستنباط؛ بل ذلك من دلائل اشتغاله بما ينفع مع جودة فهمه وحِدَّة ذكائه، ومن طرائف ذلك ما ذكره ابن العربي في «أحكام القرآن» أنَّه هو وأصحابه من البغداديين -يعني من المالكيَّة- استنبطوا من آية الطَّهارة من سورة المائدة أكثر من ثمانمائة وخمسين فائدة، وذكر ابن حجر في «فتح الباري» أنَّ ابن المنذر صنَّف مجلَّدا كبيرا في شرح صفة حجِّ النَّبيِّ ﷺ من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ذكر فيه أكثر من ألف فائدة.

فمثل هٰذه الأمور التي تتعلَّق بعلم المقاصد وفهم الكتاب والسُّنّة لا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل منها.

()) وأمَّا العلوم الَّتي هي آلَةٌ) كالعربيَّة والمنطق والأصول وأشباهها (فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا إِلَّا مِنْ حَيْثُ هِيَ آلَةٌ لِذَلِكَ الْغَيْرِ فَقَطْ، وَلَا يُوَسَّعُ فِيهَا الْكَلَامُ وَلَا تُفَرَّعُ الْـمَسَائِلُ) عليها (لِأَنَّ ذَلِكَ مُخْرِجٌ لَهَا عَنِ الْـمَقْصُودِ) فإنَّها أُريدت للخدمة، فلا تُنزل منزلةَ الحشمة، ومنزلةُ الخدمة هي بقدر ما تفي بالغرض، أمَّا منزلةُ الحشمة المقتضية للتَّكريم والرِّفعة فهي مخصوصةٌ بالعلوم الأصليَّة .

ثم ذكرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أنَّ توسيعَ الكلامِ في العلوم الآليَّة وتفريعَ مسائلها يُخرجها عن مقصودها ، وفي العلوم الآليَّة كثيرٌ من الفروع التي من هٰذا القبيل كما ذكرهُ الشَّاطبي في «الموافقات» وابن القيم في «إعلام الموقعين»، فلا ينبغي أن ينجرفَ الطَّالبُ إلى القراءةِ في غور تلك العلوم وفروع مسائلها ويُضيِّع شيئًا من عُمره فيما جعلهُ في غيره أولى، أمَّا إذا كان بعدُ متفنِّنًا في ذلك العلم بعينه فإنَّهُ يسعه ما لا يسعُ غيره؛ ولٰكن المقصود ما يحصلُ به انتفاعه

منه.

((ثم قال في آخر كلامه ﴿وَالْعُمْرُ يَقْصُرُ عَنْ تَحْصِيلِ الْجَمِيعِ عَلَى هَٰذِهِ الصُّورَةِ﴾ انتهى كلامه، فمن رام أن يحصِّل غور العلوم الآلية وأن يَبلُغ الغاية في كلِّ علم فإنَّ العُمر يضيق عن ذلك؛ ولٰكِن من استولى قلبه على مقاصد العلوم الآليَّة ومهماتها كانت له تلك آلة وافرة في استنباط واستخراج فوائد الكتاب والسُّنّة.))

ثم ذكر بعد الفراغ من كلام ابن خلدون أنَّ الطَّالب لا يتأتَّى له ﴿الظَّفَرُ بِمَا يُؤَمِّلُهُ مِنْ عُلُومِ الْـمَقَاصِدِ وَالْوَسَائِلِ حَتَّى يَكُونَ: نَهَّازًا لِلْفُرَصِ﴾ أي مغتنمًا للفرصِ التي تلوحُ له، فإنَّ الإنسان يتهيَّأُ له ومن فُرص العلم ما لا يَتهيَّأ له في موضع آخر، فمثلًا من هيَّأ الله عزَّ وجلَّ له الوفودَ على هٰذا البلد الكريم يَتهيَّأُ لهُ من التَّفرُّغ في الدِّراسة في الجامعة، ثم في حِلق المسجد النَّبوي ما سيفقدهُ بعد عدَّةِ سنوات إذا تخرَّجَ ورجعَ إلى بلاده، فينبغي أن يكون نهَّازًا للفرصة مغتنمًا لها، لا يُضيِّعُ وقته؛ لأنَّ ما فيه أنتَ اليوم قد لا تجدهُ غدًا، وهٰذا أمرٌ من عرفَ العلم وقف على حقيقته، فإذا لاحت لك فرصةٌ فلا تؤجِّل الاستفادةَ منها، فإنَّك ربَّما حِيلَ بينك وبينها .

وينبغي أن يكون ﴿مُبْتَدِئًا لِلْعِلْمِ مِنْ أَوَّلِهِ﴾، فإنَّ للعلومِ أوائلَ، ومن لم يأتِ العلوم من أوائلها لم يُصبها، وإذا رأى الإنسانَ الكتبَ المصنَّفة في علمٍ ما وجدها على اختلافها تبتدئُ بشيءٍ واحد، فمثلا من طالع كتب الفقه عند الحنفية والشَّافعية والحنابلة وجدهم جميعًا يبتدئون بكتابِ الطَّهارة وبباب المياه منهُ، وأمَّا المالكيَّة فإنَّ عامَّتهم يستفتحُ بباب المواقيت تبعًا للإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ في «موطئه» فتتابعُ هؤلاء على البداءةِ بهذا الباب دون غيره فيه إعلامٌ أنَّ للعلوم أوائل لابد من البداءةِ بها، ومثل هٰذا إذا طالعت كتب النَّحو وجدتّهم جميعًا يبتدئون بباب الكلام، فالعلومُ لها أوائل لا يُدركُ الطَّالب ذلك العلم إلَّا إذا أخذه من أوَّله ((فالذي يريد دراسة النَّحو مثلًا فإنَّه يبتدئ أوَّل شيءٍ بدراسة معنى الكلمة والكلام، ثمَّ يترقَّى بعد ذلك إلى معرفة أنواع الكلمة، ثم يترقَّى بعد ذلك إلى معرفة علامات كلِّ نوع من هٰذه الأنواع حتى يصل إلى آخر أبواب النَّحو، فلو قُدِّر أنَّ إنسانًا ابتدأ دراسة النَّحو من وسطه فدرَسه من أبواب المرفوعات، أو أنَّه انتقل حتى بلغ أواخره فدرس ما في آخره من المسائل الصَّرفية فإنَّ هٰذا لا يُفلح في العلم؛ لأنَّ العلم يُبنى بعضُه على بعض، وهٰذا لم يبتدئ العلم بما يمكن بناؤه عليه)).

ثم قال: ﴿آتِيًا لَهُ مِنْ مَدْخَلِهِ﴾ ((أي من الطَّريق الذي يؤخذ به، فإنَّه كما للبيوت مداخل يولح منها إليه)) فإنَّ العلومَ لها مداخلُ مرتبة، وهي المختصرات التي وضعها أهل العلم، والطَّريقةُ التي ارتضوها في أخذ العلم، فإنَّ أهل العلم رتَّبوا كلَّ علمٍ على درجاتٍ، إذا أخذَ فيها الإنسان كان آتيًا لها من مدخلها، والذي يأخذُ العلم من غير

مدخله لا يدخلُ العلمُ قلبه، كما أن الإنسان إذا أرادَ أن يتسوَّر على بيتٍ أُخذ بذلك وعُوقب بجريرته؛ لأنَّه لم يأت من بابه، فكذلك من يأخذُ العلم متسوِّرًا عليه من غير بابه فإنَّه يُؤخذُ عن حصن العلم ويُمنعُ من دخوله، فلا ينبغي أن يكون الإنسان مغفَّلًا لا يأتي العلم من بابه، فإنَّ المرءَ إذا أتى العلم من غير بابه حُرم ((وهٰذا الذي يرى من حال أناس يُنفقون أوقاتًا كثيرة في طلب العلم؛ ولكنَّهم يكتشفون بعد مدَّة أنَّهم لم يحصِّلوا شيئًا، فينصرفون عنه، وهؤلاء أُتوا من أنفسهم؛ لأنَّهم لم يأتوا العلم من أبوابه؛ بل تسوَّروا جدرانه، والعلم حصن منيع، لا يأخذه إلَّا من دخل عليه من مداخله.. فإنَّ العلم هو الذي اختصَّ الله عزَّ وجلَّ به من شاء من خلقه بعد النُّبوَّة فإنَّ النُّبوَّة قد طويت بموت نبيِّنا ﷺ وبقي في النَّاس منها العلم، فإنَّ «العلماء ورثة الأنبياء» كما حدث في حديث أبي الدَّرداء عند أبي داود والتِّرمذي وابن ماجه بإسناد حسن، وهٰذا الميراث جعل الله له من الحماية والوقاية والحصانة ما لا يمكن معه أن يصل إليه الأدعياء، وإنَّما يصل إليه أهلُه، وكما أنَّ المرء إذا كان له شيء ثمين فإنه لا يضعه إلَّا في حرزٍ متين، وكذلك جعل الله عزَّ وجلَّ العلم في حصون منيعة، وقلاعٍ متينة لا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلَّا من مداخلها))، وهٰذا ظاهرٌ في علومٍ حُجب الخلق عنها، من أعظمها علمُ التَّفسير، فإنَّ علمَ التَّفسير من العلوم التي صارت عند النَّاس إمَّا علمًا مُدرَكًا مُستَسهلًا كما يزعمون يُدركه كلُّ أحدٍ بمجرَّد القراءةِ فيه فهو يُطالع بنفسه ويُدرك هٰذا العلم، وعند آخرين علمًا مُغلقًا لا يمكنُ الوصول إليه لعدم المعرفة بطريقِ أخذه؛ ولٰكن من عرفَ التَّفسير عند أهله وجدَ أنَّهم جعلوا القرآن الكريم ثلاثةَ أقسام:

أحدها: المُفصَّل.

وثانيها: سورةُ البقرة.

وثالثها: بقيَّةُ القرآن.

فهم يبتدئون في تلقي التَّفسير بالمفصَّل، ثم بعدَ ذلك سورةَ البقرة، ثم بعدَ ذلك يُتمُّون القرآن إمَّا على الشَّيخ نفسهِ أو بالمطالعة، فإنَّ الإنسان إذا درسَ تفسير المفصَّل عند مفسِّرٍ متمكّن من آلة التَّفسير مع تفسيرِ سورة البقرة صارت له أهليةٌ في قبولِ علم التَّفسير، وقدرةٌ على فهم كلام أهله، فإذا عرف الإنسان مدخلَ العلم سهُلَ عليه أن يدركه، وإذا جهِلَ مدخله فإنَّه لا يدركه.

ثمَّ قال: (مُنْصَرِفًا عَنِ التَّشَاغُلِ بِطَلَبِ مَا لَا يَضُرُّ جَهْلُهُ) لأنَّ ما لا يضرُّ جهله ممَّا لا ينبغي أن يُنفقَ الوقتُ فيه ((ومن الغلط التَّشاغل بها، وإذا كان التَّشاغل بها من المبادي فإنَّ هٰذا من أعظم ما يعوق الإنسان في طلب العلم ،

فينبغي أن يجمع الإنسان نفسه على ما ينفعه ويقرِّبه إلى ربِّه ﷻ، فالمقصود من العلم أن تقف على طريق العبوديَّة إلى الله ﷻ وهٰذا يوجب عليك أن تلتمس ما ينفعك ويرفعك، فلذلك من الغلط في طلب العلم أن تجد إنسانًا يوغل في طلب العلم مع تضييعه للمهمّات التي يفتقر إليها في عبودية الله، جاء رجلٌ إلى الإمام أحمد فقال له: يا أبا عبد الله، ما تقول في ماء الباقلّاء؟ فقال له أحمد: هل تعرف ما تقول إذا أصبحت؟ قال: لا، قال: هل تعرف ما تقول إذا أمسيت؟ قال لا، قال: فاذهب فالتمس هٰذا، ثم اسأل عن ماء الباقلّاء.

فينبغي أن يجتهد الإنسان في طلب ما ينفعه ممَّا يحتاج إليه في عبودية الله ﷻ وأن لا يتشاغل بما لا يضرُّه جهله، ومن أعظم ما لا يضرُّ جهله ويتشاغل به النَّاس الحوادث القدريَّة والوقائع التي تكون في تصريفات الأيَّام وتحوُّلات الزَّمان، فإنَّ كثيرًا من النَّاس يُنفق من وقته تلمس هٰذه الأشياء، وهو لا ناقة فيها ولا جمل، ولا قدرة له على تدبير شيء منها والأمر بيد غيره، فمن السَّفاهة العقلية ومن الحرمان الأكيد أن يشتغل الإنسان بأمور لا نفع له فيها ولا أثر له فيها بالكلِّيَّة.

ثُم قال:)) ، (مُلِحًّا فِي ابْتِغَاءِ دَرْكِ مَا اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ، غَيْرَ مُهْمِلٍ لَهُ.) ((فإنَّه بكثرة الإلحاح يحصل الفلاح، فإذا ألحَّ الإنسان ثُمَّ ألحَّ، ثُمّ ألحَّ، فإنَّه يصل إلى مؤمَّله، ولا يظنَّن أحدٌ أنَّه لضعف آلته العقلية لا يصل إلى مطلوبه، بل مع الاجتهاد والمثابرة تقوى هٰذه الملكة حتى يتمكَّن الإنسان من الوصول إلى مطلوبه، فقد ذكر ..العسكري في الحثِّ على حفظ العلم أنَّه في ابتداء أمره في طلب العلم كان يحاول السَّاعات في حفظ بيتٍ واحدٍ فلم يزل يروِّض نفسه على الحفظ حتى حفظ في سَحَرٍ واحدٍ قصيدة رؤبة بن العجاج (وقاتم الأعماق خاوي المخترق) وهي ثلاثمائة بيت، فهٰذا قويت ملكتُه لَمَّا أخذها بالرِّياضة، فلا يظنَّن إنسانٌ أنَّه لأجل ما يلحظه من نفسه في أوَّل مبتدئ أمره أنه لا يصل، بل متى صدقت نية إنسان وسلك الطَّريق الموصل إلى مطلوبه مع الإلحاح والمثابرة فإنَّه يدرك ذلك)) فما استصعب عليك من العلوم أو المسائل فليست الجادَّةُ الآمنة أن تتركَ ذلك بحجَّةِ صعوبته، وإنَّما السَّابلةُ الآمنة هي أن تُعيدَ النَّظر فيه مرَّةً بعد مرَّةٍ بعد مرَّةٍ حتى تُدرك تلك المسألة أو تفهمَ ذلك الفن، وفي أخبار العلامة محمد الأمين الشنقيطي صاحب «أضواء البيان» أنَّه مرَّةً في دراسته علم الفرائض استصعبت عليه مسألةٌ فبقي بعد فراغه من درس شيخه بعد المغرب يُطالعُ كتب الفرائض حتى باحَ الفجر وظهر، فلما ظهر الفجر فهمَ تلك المسألة، فبقي ليلةً كاملة ينظرُ في كتب الفرائض ليفهمَ مسألة واحدة، وأحدنا إذا غمُضت عليه مسألةٌ ربما لو طالع كتابا آخر من كتب الفن أو سأل قرينًا من أقرانه أو شيخًا من معلميه اتضحت له؛ لكنهُ يتركها بحجَّةِ أنَّه

ليس كلُّ العلم يُفهم. وهٰذا حقٌّ، فإنَّ المدارك تتفاوت؛ لٰكن لا ينبغي أن يكون الإنسانُ سريعَ النُّكوص عن طلبِ ما يبتغي فهمه مستسلمًا لصعوبته.

ثم أورد المصنِّف كلاما للماوردي رَحِمَهُ اللهُ تعالى ((في «أدب الدُّنيا والدِّين»)) يُصدِّق هٰذا المعنى قال فيه: (فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَلَا يَنِيَ فِي طَلَبِهِ) يعني أن لا يُقصِّر في طلبه (وَيَنْتَهِزَ الْفُرْصَةَ بِهِ (() وعلَّل انتهاز الفرص بقوله: ())، فَرُبَّمَا شَحَّ الزَّمَانُ بِمَا سَمَحَ، وَضَنَّ بِمَا مَنَحَ.) إلى آخر كلامه في هٰذا المعنى المتقدِّم ((فإنَّ الأمور تتغيَّر والأحوال تتبدَّل، وما هو متهيِّئ لك اليوم ربَّما لا يتهيَّأ لك غدًا، والمُكنة بعقد برامج علمية يحضر فيها إليك معلمٌ يعلِّمك قد لا يحدث في زمنٍ آخر، فمن عرف أحوال النَّاس وتقلُّبات الدُّول علم أنَّ من الأمر ما يكون متاحًا في زمن وما يكون غير متاحٍ في زمن آخر)).

ثم ((نقل بعد ذلك كلامًا للماوردي)) قال ((فيه)): (وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْعُوَهُ ذَلِكَ إِلَى تَرْكِ مَا اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ (() يعني من العلم())، إِشْعَارًا لِنَفْسِهِ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ فُضُولِ عِلْمِهِ، وَإِعْذَارًا لَهَا فِي تَرْكِ الاشْتِغَالِ بِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَطِيَّةُ النَّوْكَى) جمعُ أنوك وهو الأحمق، ثمَّ قال: (وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الْعِلْمِ مَا تَسَهَّلَ، وَتَرَكَ مِنْهُ مَا تَعَذَّرَ، كَانَ كَالْقَنَّاصِ) يعني الصَّائد الذي يقنصُ الصّيد (إِذَا امْتَنَعَ عَلَيْهِ الصَّيْدُ تَرَكَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَّا خَائِبًا؛ إِذْ لَيْسَ يَرى الصَّيْدَ إِلَّا مُمْتَنِعًا؛ كَذَلِكَ الْعِلْمُ: طَلَبُهُ صَعْبٌ عَلَى مَنْ جَهِلَهُ، سَهْلٌ عَلَى مَنْ عَلِمَهُ) فإذا علمَ الإنسانُ طريقهُ وأخذَ به فإنَّه يسيرٌ واضحٌ، ومن كان عاقلًا لمقاصدِ الكتاب والسُّنَّة أدركَ هٰذه الحقيقة، فإنَّ هٰذا الدِّين يسرٌ، ومن يُسر الدِّين يُسر علومه، فعلوم الدِّين ليست صعبةً؛ بل هي سهلةٌ؛ ولكنَّها سهلةٌ على من أخذ بطريقها ولزم جادتها، فكما أنَّ الإنسان إذا استفتحَ الصَّلاة بغير تكبيرةِ الإحرام لم تنعقد صلاته إجماعًا فكذلك الذي يستفتح العلم من غير طريقه لا يُصيبهُ إجماعًا.

((قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالى في «الفوائد»: الجهل بالطَّريق وآفاتها، والمقصود يوجب ضياع وقت كثير في فائدة قليلة. انتهى كلامه)).

البَيِّنَةُ الْخَامِسَةُ

مِمَّا يُعِينُ الطَّالِبَ عَلَى الاتِّصافِ بِمَا سَبَقَ جَمْعُ نَفْسِهُ عَلَى تَلَقِّي الأُصُولِ تَحَفُّظًا وَتفهُّمًا، فَإِنَّ إِفْرَاغَ زَهْرَةِ الْعُمْرِ وَقُوَّةِ النَّفْسِ فِي طِلَابِهَا أَحْسَنُ الانْتِهَازِ لِلْفُرْصَةِ وَأَكْمَلُهُ، وَبِهَا ابْتِدَاءُ الْعُلُومِ مِنْ أَوَائِلِهَا، وَإِتْيَانُهَا مِنْ مَدَاخِلِهَا.

وَهِيَ سُلَّمُ الارْتِقَاءِ إِلَى الحِذْقِ فِي الْعِلْمِ، وَتَحْصِيلِ مَلَكَةِ الْفَنِّ، فَإِنَّ الحِذْقَ يُدْرَكُ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: الْإِحَاطَةُ بِمَبَادِئِ الْعِلْمِ وَقَوَاعِدِهِ.

ثَانِيهَا: الْوُقُوفُ عَلَى مَسَائِلِهِ.

ثَالِثُهَا: اسْتِنْبَاطُ فُرُوعِهِ مِنْ أُصُولِهِ.

وَأَيْسَرُ سَبِيلٍ لِلتَّحَقُّقِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ: بَقْرُ الْأُصُولِ، وَاسْتِبْطَانُ مَنْطُوقِهَا وَمَفْهُومِهَا، حَتَّى يَمْتَلِئَ الْقَلْبُ بِحَقَائِقِهَا، وَتَثْبُتَ فِي النَّفْسِ مَقَاصِدُهَا، فَيَصِيرُ الْمُمَارِسُ لَهَا ذَا حِذْقٍ وَبَصِيرَةٍ بِهَا.

قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ فِي «مُقَدِّمَتِهِ»[1] بَعْدَ كَلَامٍ سَبَقَ: (وَذَلِكَ أَنَّ الحِذْقَ فِي الْعِلْمِ وَالتَّفَنُّنَ فِيهِ وَالاسْتِيلَاءَ عَلَيْهِ، إِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ مَلَكَةٍ فِي الْإِحَاطَةِ بِمَبَادِئِهِ وَقَوَاعِدِهِ، وَالْوُقُوفِ عَلَى مَسَائِلِهِ، وَاسْتِنْبَاطِ فُرُوعِهِ مِنْ أُصُولِهِ، وَمَا لَمْ تَحْصُلْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لَمْ يَكُنِ الحِذْقُ فِي ذَلِكَ الْفَنِّ الْمُتَنَاوَلِ حَاصِلًا.

وَهَذِهِ المَلَكَةُ غَيْرُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ؛ لِأَنَّا نَجِدُ فَهْمَ الْمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْفَنِّ الْوَاحِدِ وَوَعْيَهَا مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَنْ شَدَا فِي ذَلِكَ الْفَنِّ[2]، وَبَيْنَ مَنْ هُوَ مُبْتَدِئٌ فِيهِ، وَبَيْنَ الْعَامِّيِّ الَّذِي لَمْ يُحَصِّلْ عِلْمًا، وَبَيْنَ الْعَالِمِ النِّحْرِيرِ، وَالْمَلَكَةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْعَالِمِ أَوِ الشَّادِي فِي الْفُنُونِ دُونَ مَنْ سِوَاهُمَا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَلَكَةَ غَيْرُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ).ا.هـ

ذكرَ المصنِّفُ وفَّقه الله في (**البَيِّنَةُ الْخَامِسَةُ**) أنَّ (مِمَّا يُعِينُ الطَّالِبَ عَلَى الاتِّصافِ بِمَا سَبَقَ جَمْعُ نَفْسِهُ عَلَى تَلَقِّي الأُصُولِ)؛ يعني الكتبَ الَّتي تُبنى عليها العلوم في تحصيلها، فإنَّ اسم الأصولِ يُراد به تلك الكُتب التي تتابعَ أهلُ العلم على جعلها عُمَدًا يُتلقَّى منها العلم، وذلك الإقبالُ يكون بتحفُّظها وتفهُّمها، فلابدَّ من حِفظٍ وفهم فلا يُدركُ العلم من حفظَ دون فهمٍ ولا من فهم دون حفظٍ فـ(إِفْرَاغَ زَهْرَةِ الْعُمْرِ وَقُوَّةِ النَّفْسِ فِي طِلَابِهَا أَحْسَنُ الانْتِهَازِ لِلْفُرْصَةِ وَأَكْمَلُهُ، وَبِهَا ابْتِدَاءُ الْعُلُومِ مِنْ أَوَائِلِهَا، وَإِتْيَانُهَا مِنْ مَدَاخِلِهَا) () فمن رام أن يحرز العلم فإنَّه يعمد إلى الأصول وهي الكتب المؤسّسة بتحصيل العلوم ممَّا عُرف عند أهل العلم باسم المتون، ثم يتلقَّاها تحفُّظًا

---

(١) ص ٣٤١-٣٤٢.

(١) الشَّدوُ: كلُّ قليلٍ من كثيرٍ، يُقالُ: شدا من العلم شَدْوًا فهو شادي؛ إذا أحسن منه حظًّا.

وتفهُّمًا، فلابدَّ من وجود هاتين الصُّورتين الحفظ والفهم، ولا يدرك الإنسان العلم إلَّا بهما، ومن ظنَّ أنَّه ينال العلم بلا حفظ ولا فهم، فلا يتعنَّى، والأخذ بواحدٍ منهما مما يضرّ بالآخر، فإنَّ الإنسان إن استنفد قوَّته في حفظه أضرَّ بفهمه وإذا استنفذ قوَّته بفهمه أضرَّ بحفظه؛ ولٰكن الإنسان إن راعى بينهما وجعلهما جناحين للطَّائر حصلت له ملكة قويَّة في العلم، فينبغي أن يجتهد طالب العلم في حفظ تلك المتون وتلقِّيها بالتَّفهُّم(). وَهِيَ سُلَّمُ الارْتِقَاءِ إِلَى الحِذْقِ فِي الْعِلْمِ()) يعني النَّباهة فيه، فإنَّ إتقان العلم والنَّباهة فيه شيءٌ يأتي بعد تحصيل الأصول ولا يأتي معها، ())وَتَحْصِيلِ مَلَكَةِ الْفَنِّ) فإنَّ المرءَ لا يرتقي إلى المهارة في العلم والحذق فيه حتى يكون قد بذلَ من نفسه في حفظ الأصول وفهمها.

ثم بيَّن أنَّ الحَذق في العلم (يُدْرِكُ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: الْإِحَاطَةُ بِمَبَادِئِ الْعِلْمِ وَقَوَاعِدِهِ.

ثَانِيهَا: الْوُقُوفُ عَلَى مَسَائِلِهِ.

ثَالِثُهَا: اسْتِنْبَاطُ فُرُوعِهِ مِنْ أُصُولِهِ.) فإذا وُجِدت هٰذه المعاني الثَّلاثة صارَ المتَّصفُ بها حاذقًا في العلم.

ثمَّ بيَّن أنَّ (أَيْسَرُ سَبِيلٍ لِلتَّحَقُّقِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ: بَقْرُ الْأُصُولِ) يعني شَقُّ الأصول (وَاسْتِبْطَانُ مَنْطُوقِهَا وَمَفْهُومِهَا) أي استدخالُها حتى تكون مضمومةً في قلب الإنسان فـ(يَمْتَلِئَ الْقَلْبُ بِحَقَائِقِهَا، وَتَثْبُتَ فِي النَّفْسِ مَقَاصِدُهَا، فَيَصِيرُ الْـمُمَارِسُ لَهَا ذَا حِذْقٍ وَبَصِيرَةٍ بِهَا.).

ثم أوردَ كلامَ ابن خلدون في هٰذا المعنى وفيه: (وَذَلِكَ أَنَّ الحِذْقَ فِي الْعِلْمِ وَالتَّفَنُّنَ فِيهِ وَالاسْتِيلَاءَ عَلَيْهِ، إِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ مَلَكَةٍ فِي الْإِحَاطَةِ بِمَبَادِئِهِ وَقَوَاعِدِهِ، وَالْوُقُوفِ عَلَى مَسَائِلِهِ، وَاسْتِنْبَاطِ فُرُوعِهِ مِنْ أُصُولِهِ) **والملَكةُ هي الهيئةُ الرَّاسخة**، فإنَّ الهيئةَ على درجات، وأعلاها كونها هيئةً راسخةً في النَّفس ثابتةً فيها، فإذا ثبتت تلك الهيئةُ في النَّفس سُمِّيت ملكةً.

ثم قال: (وَمَا لَمْ تَحْصُلْ هَذِهِ الْـمَلَكَةُ لَمْ يَكُنِ الحِذْقُ فِي ذَلِكَ الْفَنِّ الْـمُتَنَاوِلِ حَاصِلًا).

ثم قال منبِّهًا إلى حقيقةِ الملكة: (وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ غَيْرُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ) ففهمُ المسألة ووعيُها في أمرٍ ما هو مشتركٌ بين الخلق، فتجدُ العامِّيَّ والمبتدئَ في العلم والمتوسِّطَ فيه والمنتهي فيه يفهمون ما يُلقِي إليهم المعلمُ من العلم؛ لكن وُجدان ذلك المعنى من الإدراك في القلب يتفاوتُ بحسب ما في نفوسهم من مَلَكات ذلك الفنّ، فلا يكون إدراكُ الحقيقةِ الباطنة للمرء إذا كان منتهيًا كإدراكها لمن كان مبتدئًا، وإن كانا مشتركين معًا في فهم ما يلقى إليهما، فإنَّ

المبتدئ غالبُ نظرِهِ إلى ما يلقى إليه، أمَّا من شدا في العلم حظًّا وافرًا فإنَّ منتهى نظره في كيفيَّةِ وجودِ تلك المسألة على تلك الصُّورة وكيفيَّةِ إلحاق نظائرها بها.

ثم قال: (وَالْـمَلَكَةُ إِنَّمَا هِيَ لِلعَالِـمِ أَوْ الشَّادِي فِي الفُنُونِ) يعني من أخذَ بنصيبٍ وافرٍ فمن أخذ بنصيب وافر من العلم سُمِّي شاديًا (دُونَ مَنْ سِوَاهُمَا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْـمَلَكَةُ غَيْرُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ) فلا ينبغي أن يكون منتهى الإنسان من أخذِ فنٍّ هو مجرَّدُ فهمه، فإنَّ فهم الصُّورةَ الظَّاهرة شيءٌ يشتركُ فيه كثير من النَّاس؛ لكن المهارة في العلم، ومعرفةَ مخارج تلك المسائل هو الذي يتميَّزُ به النَّاس.

((أضرب لك مثلًا من كلام فقهاء الحنابلة رحمهم الله تعالى، فإنَّ فقهاء الحنابلة من مفرداتهم عن بقيَّة الثَّلاثة ذِكرهم من نواقض الوُضوء لحم الجزور، وحُجَّتهم في ذلك الأحاديث المرويَّة عن النَّبي ﷺ في حديث جابر بن سمُرة وغيره عند مسلم، وفيه أنَّ رجلًا قال للنَّبيِّ ﷺ: هل نتوضَّأ من لحوم الإبل؟ قال: «نعم توضَّؤوا منها» ومع أنَّ الحنابلة وعلى رأسهم إمامهم عُرفوا بشدَّة التمسُّك بالآثار إلَّا أنَّهم عدلوا عن نقض لحم الإبل إلى لحم الجزور، فلا تجد كتابًا حنبليًّا متقنًا وفيه ذكر هٰذا النَّاقض باسم أكل لحم الإبل، وإنَّما قالوا: أكل لحم الجزور، وإنَّما عدلوا عن ذلك لأمرٍ يدركه ذا الحذق في العلم، وأمَّا المبتدئ والعامي فإنَّهم لا يدركونه؛ ولٰكن من حصلته له ملكة في العلم رأى أنَّ الحنابلة رحمهم الله تعالى فرَّقوا بين أجزاء المأكول من الإبل وجعلوا الرَّأس غير ناقض وجعلوا الحوايا كالكبد وغيرها غير ناقضة، أدرك معنى الجزور، وأنَّ الجزور اسم لما يجزر من اللَّحم، ولا يتوصَّل إليه إلا بقطعه، وذلك ما كان ملاصقًا لعظمه، فخصُّوا النقض به، وعدولهم إلى هٰذه الكلمة وحسن فهم مأخذها لا يتوصل إليه إلَّا من كان ذا حذق وبصيرة في العلم.))

فمثلا من كانت له مهارةٌ إذا قرأ تفسيرَ أبي بكر البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى لكلام الشَّافعي: (هٰذا الحديثُ ثلثُ العلم) يعني حديثَ (الأعمال بالنيَّات)، وقال أبو بكر البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (لأنَّ كسب الإنسانِ يكونُ بيده وبلسانه وبقلبه، فهٰذا الحديثُ يتعلَّق بأمر القلب). فإنَّ من سمع هٰذه المسألة فهِمَ أنَّ مراد أبي بكرٍ البيهقي أنَّ عمل الإنسان مقسومٌ على هٰذه الأقسام، ومن جملتها ما يكون في القلب من النِّيَّة، فلأجل هٰذا صارَ هذا الحديثُ ثلث العلم؛ لكن الذي عنده ملكةٌ في فهم كلام أهل العلم يعلمُ أنَّ كلمة (الكسب) التي ذكرها أبو بكرٍ البيهقي ليست جاريةً وفقَ المعنى اللُّغوي؛ وإنَّما وفقَ ما جرى عليه متأخِّروا الأشاعرة في مسألةِ خلق أفعال العباد، فهٰذا فرقٌ بين من كانت له ملكةٌ في العلم وبين من يفهمُ الكلام الملقى إليه.

البَيِّنَةُ السَّادِسَةُ

إِنَّ الْوُصُولَ إِلَى الحَذْقِ فِي الْعِلْمِ لَا يَتَهَيَّأُ بِأَخْذِهِ دُفْعَةً وَاحِدَةً، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ تَدْرِيجِ النَّفْسِ فِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَتَحَقَّقُ هَذَا بِتَكْرَارِ دِرَاسَةِ الْفَنِّ فِي عِدَّةِ أُصُولٍ لَهُ، تَنْتَظِمُ ارْتِفَاعًا مِنَ الْإِيجَازِ إِلَى التَّوَسُّطِ ثُمَّ الطُّولِ، وَقَدْ يَكُونُ لِكُلِّ مَرْتَبَةٍ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَقَدْ تَضُمُّ أَصْلَيْنِ اثْنَيْنِ مَعًا.

وَتَخْتَصُّ الْأُصُولُ الْـمُوجَزَةُ بِكَوْنِهَا جَامِعَةً لِلْمَسَائِلِ الْكِبَارِ فِي كُلِّ بَابٍ؛ ثُمَّ تَتَزَايَدُ مَسَائِلُهُ فِي الْأُصُولِ الْـمُتَوَسِّطَةِ وَالْـمُطَوَّلَةِ.

وَمِفْتَاحُ الْانْتِفَاعِ بِكُلٍّ هُوَ أَنْ يَتَلَقَّى الطَّالِبُ الْأُصُولَ الْـمُوجَزَةَ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ؛ لِيَتَهَيَّأَ بِذَلِكَ لَهُ فَهْمُ الْفَنِّ وَتَحْصِيلُ مَسَائِلِهِ.

وَيَتَلَقَّى بَعْدَهَا الْأُصُولَ الْـمُتَوَسِّطَةَ مُسْتَوْفَاةَ الشَّرْحِ وَالْبَيَانِ، مَعَ ذِكْرِ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْـخِلَافِ وَوَجْهِهِ، فَتَقْوَى بِذَلِكَ مَلَكَتُهُ فِي الْفَنِّ.

ثُمَّ يَتَلَقَّى بَعْدَهَا الْأُصُولَ الْـمُطَوَّلَةَ؛ مُسْتَكْمِلًا شَرْحَهَا وَبَيَانَهَا وَمَعْرِفَةَ خِلَافِيَّاتِهَا، وَيُزَادُ لَهُ حَلُّ الْـمُشْكِلَاتِ، وَتَوْضِيحُ الْـمُبْهَمَاتِ، وَفَتْحُ الْـمُقْفَلَاتِ، فَيَصِلُ بِهَذِهِ الْعُدَّةِ إِلَى مَلَكَةِ الْفَنِّ.

وَالْـمُرْشِدُ إِلَى هَذَا كُلِّهِ هُوَ الدَّرَّاكَةُ الْبَصِيرُ ابْنُ خَلْدُونَ إِذْ يَقُولُ فِي «مُقَدِّمَتِهِ»(١):

(اعْلَمْ أَنَّ تَلْقِينَ الْعُلُومِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا إِذَا كَانَ عَلَى التَّدْرِيجِ: شَيْئًا فَشَيْئًا وَقَلِيلًا قَلِيلًا، يُلْقِي عَلَيْهِ أَوَّلًا مَسَائِلَ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنَ الْفَنِّ هِيَ أُصُولُ ذَلِكَ الْبَابِ، وَيُقَرِّبُ لَهُ فِي شَرْحِهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ، وَيُرَاعِي فِي ذَلِكَ قُوَّةَ عَقْلِهِ وَاسْتِعْدَادَهُ لِقَبُولِ مَا يُورِدُ عَلَيْهِ، حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى آخِرِ الْفَنِّ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ مَلَكَةٌ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ؛ إِلَّا أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ وَضَعِيفَةٌ، وَغَايَتُهَا أَنَّهَا هَيَّأَتْهُ لِفَهْمِ الْفَنِّ وَتَحْصِيلِ مَسَائِلِهِ.

ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ إِلَى الْفَنِّ ثَانِيَةً؛ فَيَرْفَعُهُ فِي التَّلْقِينِ عَنْ تِلْكَ الرُّتْبَةِ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا، وَيَسْتَوْفِي الشَّرْحَ وَالْبَيَانَ، وَيَخْرُجُ عَنِ الْإِجْمَالِ، وَيَذْكُرُ لَهُ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْخِلَافِ وَوَجْهَهُ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِي إِلَى آخِرِ الْفَنِّ فَتَجُودَ مَلَكَتُهُ.

ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ وَقَدْ شَدَا؛ فَلَا يَتْرُكُ عَوِيصًا وَلَا مُبْهَمًا وَلَا مُنْغَلِقًا إِلَّا وَضَّحَهُ وَفَتَحَ لَهُ مُقْفَلَهُ، فَيَخْلُصُ مِنَ الْفَنِّ وَقَدِ اسْتَوْلَى عَلَى مَلَكَتِهِ.

هَذَا وَجْهُ التَّعْلِيمِ الْـمُفِيدِ، وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي ثَلَاثِ تَكْرَارَاتٍ، وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْبَعْضِ فِي أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ

(١) ص ٤٥٨.

بِحَسَبِ مَا يُخْلَقُ لَهُ وَيَتَيَسَّرُ عَلَيْهِ).انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَهُوَ شَبِيهٌ بِاجْتِمَاعِ الْـخَلْقِ عَلَى تَرْتِيبِ الدِّرَاسَةِ النِّظَامِيَّةِ فِيمَا دُونَ الْـجَامِعَةِ = فِي مَرَاحِلَ ثَلَاثٍ: الابْتِدَائِيَّةِ وَالْـمُتَوَسِّطَةِ وَالثَّانَوِيَّةِ.

ذكرَ المصنِّفُ وفَّقهُ الله في هٰذه البيِّنة (أَنَّ الْوُصُولَ إِلَى الحَذْقِ فِي الْعِلْمِ(() المتقدِّم ذكره والإفادة به()) لَا يَتَهَيَّأُ بِأَخْذِهِ دُفْعَةً وَاحِدَةً، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ تَدْرِيجِ النَّفْسِ فِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَتَحَقَّقُ هَذَا بِتَكْرَارِ دِرَاسَةِ الْفَنِّ فِي عِدَّةِ أُصُولٍ لَهُ، تَنْتَظِمُ ارْتِفَاعًا مِنَ الْإِيجَازِ إِلَى التَّوَسُّطِ ثُمَّ الطُّولِ) فيأخذُ الفنَّ أوّلًا في مختصرٍ من مختصراته الوجيزة، ثم يأخذهُ ثانيةً في كتابٍ متوسِّطٍ فيه، ثم يأخذهُ ثالثةً في كتابٍ مطوَّل، (وَقَدْ يَكُونُ لِكُلِّ مَرْتَبَةٍ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَقَدْ تَضُمُّ أَصْلَيْنِ اثْنَيْنِ مَعًا) فربَّما كان في مرحلة الابتداء يَحتاجُ الطالب في فنّ إلى كتابين، ثم في مرحلةِ التَّوسُّط إلى كتاب، وفي مرحلة الانتهاء إلى كتابٍ واحد فقط. ((فإنَّ أهل العلم رتَّبوا أخذ العلم على ثلاثة منازل:

أحدها: منزلة الابتداء.

وثانيها: منزلة التَّوسُّط.

وثالثها: منزلة الانتهاء.

ومن كان في الأولى سُمِّي مبتدئًا، ومن كان في الثَّانية سُمِّي متوسِّطًا، ومن كان في الثَّالثة سُمِّي منتهيًا، وحقَّقوا وصف المبتدئ كما في شرح الدَّمنهوري على «السُّلم المنورق» وغيره أنَّ:

المبتدئ هو المتصوِّر لمسائل الفن.

وأنَّ **المتوسِّط** هو المتصوِّر لها مع معرفة أدلتها.

وأنَّ **المنتهي** هو المتصوِّر لها مع معرفة أدلَّتها، والقُدرة على الرَّدِّ على المخالف للمحرّر فيها.

فلا يتمكَّن الإنسان إلَّا برعاية هٰذا التَّدرُّج، وممَّا ينظِّم هٰذا التَّدرج رعاية الأصول المؤلَّفة في الفنون فيأخذ الإنسان علمه التَّدريجي بالابتداء في متنٍ وجيز، ثم ينتقل إلى متوسِّط، ثم يرتقي إلى منتهي، وتكون كيفية الدِّراسة في كلِّ مرحلة من هٰذه المراحل الثَّلاث وفق ما يصلح له.))

ثم ذكرَ أنَّ (الْأُصُولَ الْـمُوجَزَةَ) (تَخْتَصُّ .. بِكَوْنِهَا جَامِعَةً لِلْمَسَائِلِ الْكِبَارِ فِي كُلِّ بَابٍ؛ ثُمَّ تَتَزَايَدُ مَسَائِلُهُ فِي الْأُصُولِ الْـمُتَوَسِّطَةِ وَالْـمُطَوَّلَةِ.) فمثلًا إذا أخذَ الطَّالب متن الآجُرَّامية في النَّحو فإنَّ هٰذا الكتاب يشتملُ على أصول المسائل النَّحوية ولا يستوعبها جميعًا، فإذا ترقى بعدُ إلى «قَطْر النَّدى» وجدَ مسائل زائدة؛ بل أبوابًا لم ترد

عليه في المتن السَّابق، فإذا ارتقى بعد ذلكَ إلى «ألفيةِ ابن مالك» وجدَ زيادةً على الاثنين؛ لكنه لا يتهيأُ إلى فهم «ألفية ابن مالك» إلَّا بتقدُّمِ قراءةِ هذين الكتابين، ومن ظنَّ أنَّه يُدركُ بفهمه مقاصدَ الألفية فإنَّه أوتي من جهله، فإنَّ العلمَ لا يُرادُ منه فهم الظَّاهر إنَّما يُرادُ بقاءُ تلك المعاني في النَّفس، ولا تبقى تلك المعاني في النَّفس إلَّا بتدريج النَّفس فيها شيئًا فشيئًا، وترقيتها إليها درجةً فدرجة، فإذا ارتقى في النَّحو درجةً بحفظ «الآجُرَّامية» وفهمها أو حفظ نظمها وفهمه، ثم ارتقى بعد ذلك إلى «القطر» ثم ارتقى بعد ذلك إلى «الألفية» فَهِمَ «الألفية»، أمَّا الذي صارَ يدعو اليوم إلى الاكتفاءِ بالكتب المطولات اختصارًا للزَّمن -كما يقولون-، فإنَّه لا يختصرُ الزَّمن على الطَّالبين، فصارَ بعضَ النَّاس يأمر طلابهُ بأن يحفظوا الألفيات مباشرةً وأن يستشرحوها، وأنَّ هٰذا يُيسِّر لهم أخذ العلم، ولا يكون ذلك أبدًا؛ بل هٰذا يطوِّلُ عليهم أخذَ العلم، فإنَّهم يدرسون «الألفية» في فنٍّ ما ولا يفهمونها، بخلاف لو تقدَّمَ دراستهم لها قبل ذلك دراسةُ متنٍ موجز ثم دراسةُ متنٍ مطوَّل.

((فليس الشَّرط في أخذ العلم أن تفهم ما يُلقى إليك؛ ولٰكن الشَّرط في أخذ العلم أن يبقى ذلك معك، وكثيرٌ من الطلبة يحضرون الدُّروس العالية، ويقولون: نفهم، وصدقوا؛ يفهمون؛ ولٰكن هٰذا فهم وقتيٌّ لعدم وجودِ تأسيسٍ تبقى به العلوم، وإنَّما الذي يندفع به قراءة الكتب التي بلغت المنتهى هو الذي تدرَّج إليها فصارت له ملكة إنسانية ينتفع بها بين العلوم، وإذا درس الإنسان مقدِّمات العلوم على الوجه الذي تُدرس به خواتمها أضرَّ بنفسه، فإذا قُدِّر أنَّ طالبًا درس الآجرَّامية على وجه التَّطويل بذكر الخلافيات النَّحوية وحُجج أصحابها وخلاف بين البصريين والكوفيين وحلِّ المقفلات لا يمكن، وإن ظنَّ أنَّه ينتفع، وإن ظنَّ أنَّ أُستاذه حاذقٌ، وربَّما يكون حاذقًا في فنٍّ؛ لٰكن ليس حاذقًا في تعليم النَّاس العلم، فإنَّ تعليم النَّاس العلم إنَّما يكون بالتَّدريج شيئًا فشيئًا، فمن الغلط أن يُلقِّن طالب العلم في مقدِّمة الآجرَّامية أزيد ممَّا يحتاجُ إلى مجملات مسائلها، وذلك يُؤخذ في ثلاثة أيَّام أو خمسة أيَّام؛ لأنَّ هٰذه العلوم ممَّا يفتقر إليها في علوم الدِّيانة، فإنَّ النَّحو من أشدِّ العلوم التي يبنى عليها الكتاب والسُّنَّة، وممَّا ينبغي أن يعقله المرء أن ما تعبّده الله به لا يكون وعرًا صعبًا أبدًا؛ ولٰكنَّ النَّاس وعَّروه وصعَّبوه على أنفسهم، فإنَّ الله تعبَّدنا بدين سهلٍ ميسورٍ، وينبغي أن تكون عيونُه سهلةً ميسورةً؛ ولٰكن طريقة تليقِّيها هي التي أفسدت العلم فصار الطَّالب إذا درس النَّحو وقرأ المقدِّمة الآجرَّامية جيء إليه في مقدِّمتها (الكلام هو اللَّفظ المركَّب المفيد) فسارع معلِّمه يقول: الكلام كلمة مركَّبة من (أل) و(كلام)، ثمَّ يذكر أنواع (أل) ثم يذكر له الخلاف مما يكون متعلَّق (أل) في هٰذه الكلمة، ثُم يذكر له الكلام هل هو جمع كلمة أم لا، وما

صلة الكلام بالكلمة، وهل الكلم جمع أم اسم جمع، فيخرج الطَّالب المسكين يقول: لقد أخذتُ النحو على أستاذٍ حاذقٍ وهو في الحقيقة لا يأخذ شيئا، وهو لا ينتفع بالنَّحو بهذه الطَّريقة، ولذلك تجد أنَّ دراسة العلوم على غير طريقتها يوعِّرها، وخذ ذلك في علم النَّحو، فإنَّ النَّاس يدرسون علم النَّحو على طريقة لا ينبغي دراستها، تجد طالب علم النَّحو إذا درس بابًا من أبواب النَّحو أُشغل بغيره، فتجد أنَّ بعض المعلِّمين للنَّحو في الباب الأوَّل وهو باب الكلام يضرب للطَّلبة أمثلة من الجمل، ثم يقول مثلا: (جاء محمدٌ إلى المدرسة) ثم يقول: هٰذه الجملة فيها عدَّة كلمات (جاء فعل ماض) إلى آخره، ثم يشرع في إعرابها، فيُعرب (جاء) ويُعرب (محمَّد) ، والطَّالب لم يرتق إلى فهم ذلك، ومن الغلط إشغاله به.

وطريق نفعه أن يقال: استخرج كلَّ نوع من أنواع الكلام الذي درسته في هٰذه الجملة، وبيِّن دليله، ويُقتصر على ذلك، وفي كلِّ باب يحرص على هٰذا.))

ثم قال: (وَمِفْتَاحُ الْانْتِفَاعِ بِكُلٍّ هُوَ أَنْ يَتَلَقَّى الطَّالِبُ الْأُصُولَ الْـمُوجَزَةَ عَلَى سَبِيلِ الإِجْمَالِ؛ لِيَتَهَيَّأَ بِذَلِكَ لَهُ فَهْمُ الْفَنِّ وَتَحْصِيلُ مَسَائِلِهِ) فيدرُسها على وجهٍ مُجمَلٍ لا على وجهٍ مُفصَّلٍ؛ لأنَّ التَّفصيلَ في هٰذه الدَّرجة يضرُّه لعسر ذلك عليه وثقلِهِ على نفسه، فينبغي إمدادهُ بالمعاني الإجمالية الكلية لذلك المتن.

ثم بعد ذلك في الأصولِ المتوسطة يُستوفى (الشَّرْحِ وَالْبَيَان، مَعَ ذِكْرِ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْـخِلَافِ وَوَجْهِهِ، فَتَقْوَى بِذَلِكَ مَلَكَتُهُ فِي الْفَنِّ... ثُمَّ يَتَلَقَّى بَعْدَهَا الْأُصُولَ الْـمُطَوَّلَةَ؛ مُسْتَكْمِلًا شَرْحَهَا وَبَيَانَهَا وَمَعْرِفَةَ خِلَافِيَّاتِهَا، وَيُزَادُ لَهُ حَلُّ الْـمُشْكِلَاتِ، وَتَوْضِيحُ الْـمُبْهَمَاتِ، وَفَتْحُ الْـمُقْفَلَاتِ، فَيَصِلُ بِهَذِهِ الْعُدَّةِ إِلَى مَلَكَةِ الْفَنِّ.)

ثم ذكرَ المصنِّفُ أنَّ ما سبقَ ذكره هو من كلام ابن خلدون رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في مقدمته، وذكرَ كلامَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في ترتيب دراسة الفن على ثلاثِ تكرُرات مرَّةً بعد مرَّةٍ بعد مرَّةٍ.

ثم قال ابن خلدون بعدُ: (هَذَا وَجْهُ التَّعْلِيمِ الْـمُفِيدِ) وهٰذا يُنبئك أن ما عداهُ ليس مفيدًا، وإنَّما وجهُ التعليم المفيد هو أن يأخذَ الإنسان بهذه الجادة ويكرر أخذه للعلم مرةً بعد مرةٍ بعد مرةٍ على وجه الاختصار ثم التَّوسط ثم التَّطويل.

ثم ذكرَ المصنِّف أن هٰذا (هُوَ شَبِيهٌ بِاجْتِمَاعِ الْـخَلْقِ عَلَى تَرْتِيبِ الدِّرَاسَةِ النِّظَامِيَّةِ فِيمَا دُونَ الْـجَامِعَةِ = فِي مَرَاحِلَ ثَلَاثٍ: الابْتِدَائِيَّةِ وَالْـمُتَوَسِّطَةِ وَالثَّانَوِيَّةِ.) مع أنَّهم يُكررون دراسةَ المعاني التي درَسوها في المرحلة السابقة في المرحلة التي تليها لٰكِن على وجهِ التَّوسع، والإنسان لا يمهرُ في العمليات الحسابيَّة إلَّا بدراستها على ترتيبها

المعروف عند القدماء إلى يومنا، فهو يدرسُ أوَّلًا الجمعَ ثم الطَّرحَ ثم الضَّربَ ثم القسمةَ، فإذا أراد معلِّمٌ أن يعكس القضية ويُدرِّس الطُّلاب القسمةَ قبل ذلك، أو أن يُدرّسهم الضربَ قبل ما قبله فإنَّ طلبته لا ينتفعون، وإن وُجد فيهم من يفهم شيئًا من هٰذه المعاني، وكما يكون ذلك في العلميات الحسابية المتعلقة بأمور الدنيا، فكذلك العلمُ لا يُدرك إلَّا بهذا، فلا يمكن للإنسان أن يمهرَ في العلم إلا بأخذِهِ شيئًا فشيئًا، وهٰذه الجادَّة تحتاجُ إلى صبر، فإنَّ المرءَ إذا شابت لحيته أو كبرت سِنُّه ربما يقول: لماذا أدرسُ أو أدرِّسُ هٰذه المتون الوجيزة؟ فهو إمَّا أن يكون قد ارتفعَ بعلمه أو ارتفعَ بسنه عن دراستها وتدريسها، وكلُّ ذلك من الجهل، فإنَّ المتعلمَ العاقل والمُعلِّم العاقل يدركان أن انتفاعهما بهذا أعظمُ من خروجهما إلى سواه، فينبغي أن يُعيدَ المرء نفسه إلى هٰذه الجادة ولو كان أنفقَ عمرًا في غيرها لأنَّ مواصلتك الخُطى في طريقِ الخطأ هو من تتميم الخطأ، فإنَّ الإنسان إذا أخذَ بجادةٍ غير مأمونة بقاؤهُ فيها لا يزيدهُ إلا تيهًا وضياعًا؛ لٰكن انتقالهُ إلى جادةٍ مأمونة وسابلةٍ مسلوكةٍ هو الذي ينفعه، فينبغي للإنسان أن يصحِّحَ أخذهُ للعلم بجمع نفسه على طلب العلم في الكُتب المعتمدةِ عند أهله ترقِّيًا للنَّفس شيئًا فشيئا على وَفق ما ذكرناه آنفًا.

((ومن العجيب أنَّ البادئين للعلوم الشَّرعية لا يستفيدون من مناهج الإفادة في طرائق التَّربية والتَّعليم، وما تُنفقه وزارات التَّعليم والتَّربية في العالم العربي والإسلامي لترقية العلوم كلّها، ومنها طرفٌ من العلوم الشَّرعية أو العلوم اللُّغوية كالنَّحو، وربَّما وجدت في مقرَّرات المناهج الدِّراسية ما يكون لطلَّاب العلم أنفعَ ممَّا صارت إليه بعض طرائق التَّدريس لبعض المتون، فلا ينبغي أن يغفل الإنسان عن الإستفادة من مقرَّرات المواد الدِّراسية في خدمة العلوم الشَّرعية واللُّغوية ممَّا مُيِّز في الجهة التَّعليميَّة)).

البَيِّنَةُ السَّابِعَةُ

تُؤْخَذُ أُصُولُ الْفُنُونِ حِفْظًا وَفَهْمًا عَنْ شَيْخٍ عَارِفٍ مُتَّصِفٍ بِوَصْفَيْنِ اثْنَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْأَهْلِيَّةُ فِي الْفَنِّ، بِتَمَكُّنِهِ فِي النَّفْسِ.

وَالْآخَرُ: النُّصْحُ وَحُسْنِ الْـمَعْرِفَةِ بِطُرُقِ التَّعْلِيمِ.

فَإِنَّ الْعِلْمَ خِزَانَةُ الشَّرِيعَةِ، وَمَفَاتِيحُ الخِزَانَةِ بِأَيْدِي الْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَنْ لَـمْ يَفْتَحْ لَهُ الْـخَازِنُ كَيْفَ يَنَالُ مُبْتَغَاهُ.

وَدَلَائِلُ الشَّرْعِ وَالعَقْلِ مُتَوَاطِئَةٌ عَلَى تَقْرِيرِ هَذَا الْـمَعْنَى، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدْرِكُ الْعِلْمَ دُونَ شَيْخٍ مُرْشِدٍ فَلَا يَتَعَنَّ.

وَالشُّيُوخُ لَـهُمْ دَرَجَاتٌ وَمَرَاتِبُ يَتَفَاضَلُونَ فِيهَا، وَالَّذِي تَنْبَغِي رِعَايَتُهُ فِيهِمْ هُوَ الْوَصْفَانِ الْـمَذْكُورَانِ آنِفًا، فَمَنْ اجْتَمَعَا فِيهِ مِنَ الشُّيُوخِ فَهُوَ أَوْلَى بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ أَعْلَمَ مِنْهُ.

فَمَنْ لَـمْ يَكُنْ نَاصِحًا عَارِفًا بِطُرُقِ التَّعْلِيمِ أَضَرَّ بِالْـمُتَعَلِّمِينَ وَأَوْرَدَهُمْ مَوَارِدَ الْأَذَى.

فَاحْرِصْ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ وَصْفُهُ، فَإِنْ لَـمْ يَتَيَسَّرْ مِثْلُهُ أَوْ مَنْ يُقَارِبُهُ مِنَ الشُّيُوخِ، وَفُقِدَ الشَّيْخُ الْـمُعَلِّمُ فِي بَلَدٍ أَوْ زَمَنٍ، أَوْ شَقَّ الْوُصُولُ إِلَيْهِ، أَمْكَنَ سُلُوكُ أَحَدِ الطُّرُقِ الْآتِيَةِ:

الْأَوَّلَ: اسْتِحْضَارُ شَرْحٍ مُعْتَمَدٍ لِلْأَصْلِ الْـمَقْصُودِ، وَتَفَهُّمُ مَعَانِيهِ، مَعَ مُرَاجَعَةِ شَيْخٍ عَارِفٍ بِالْفَنِّ فِيمَا أَشْكَلَ مِنْهُ.

الثَّانِي: الزِّيَادَةُ عَلَى شَرْحٍ وَاحِدٍ مَعَ سُلُوكِ مَا مَضَى، وَمَحَلُّ هَذَا إِذَا كَانَتْ شُرُوحُ الْأَصْلِ تَقْصُرُ عَنْ تَوْضِيحِ مَعَانِيهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ ضَمِّ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، أَوْ كَانَ الطَّالِبُ جَيِّدَ الْفَهْمِ قَوِيَّ الْعَقْلِ.

الثَّالِثُ: الزِّيَادَةُ عَلَى الْـمَرْتَبَةِ السَّابِقَةِ بِمُطَالَعَةِ مُدَوَّنَاتِ الْفَنِّ الْـمُعْتَمَدَةِ، وَلَا يَصْلُحُ هَذَا الطَّرِيقُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ الشُّرُوحُ عَلَى الْحَالِ الْـمَذْكُورَةِ سَابِقًا، وَالطَّالِبُ فَوْقَ مَا تَقَدَّمَ.

وَكَمَا عَرَفْتَ فَإِنَّ اخْتِيَارَ طَرِيقٍ دُونَ آخَرَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ قُوَّةِ الْفَهْمِ، وَمَحَلِّ الْفَنِّ الْـمَقْصُودِ مِنَ الْعُلُومِ، وَمَنْزِلَةِ الْأَصْلِ الْـمُوصِلِ إِلَى فَهْمِهِ بَيْنَ كُتُبِهِ.

وَمِنْ أُصُولِ الْمَلَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ مَا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى عَرْضِهِ عَلَى شَيْخٍ – مَعَ كَوْنِ ذَلِكَ أَكْمَلَ –؛ كَـ «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» – مَثَلًا –، لَكِنَّ هَذَا الضَّرْبَ مِنَ الْأُصُولِ لَا تَحْسُنُ مُطَالَعَتُهُ إِلَّا بَعْدَ التَّضَلُّعِ مِنْ مُهِمَّاتِ الْعُلُومِ لِتَعْظُمَ مَنْفَعَتُهُ، وَقَدْ يَحْتَاجُ الطَّالِبُ إِلَى عَرْضِ شَيْءٍ مِنْهُ عَلَى شَيْخٍ يَكْشِفُ مَعْنَاهُ وَيُوَضِّحُ مَغْزَاهُ.

هَذَا كُلُّهُ حَظُّ الطَّالِبِ مِنْ صِنَاعَةِ الْفَهْمِ عِنْدَ فَقْدِ الشَّيْخِ، أَمَّا صِنَاعَةُ الْحِفْظِ فَلَهُ أَنْ يَعْرِضَ مَحْفُوظَهُ مِنْ نُسْخَةٍ مُصَحَّحَةٍ لِلْأَصْلِ عَلَى قَرِينٍ لَهُ ذِي مَعْرِفَةٍ بِالْفَنِّ، فَإِنْ عُدِمَ الْقَرِينُ الْمَوْصُوفُ قَصَدَ غَيْرَهُ، مَعَ الِالْتِزَامِ بِنَسْخِ الْأُصُولِ الْمُتْقَنَةِ الْمَوْثُوقِ بِهَا.

فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَرْتَحِلْ مِنْ بَلَدِهِ فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يَنْعَشُ فِيهَا، وَلْيَطْلُبْ بَلَدًا يَجِدُ فِيهِ بُغْيَتَهُ، وَإِلَّا بَقِيَ فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ وَالْحَيْرَةِ.

ذكرَ المصنِّفُ وفقه الله في هٰذه البيِّنة أنَّ (أُصُولَ الْفُنُونِ) من الكتبِ المعتمدة فيها (تُؤْخَذُ) (حِفْظًا وَفَهْمًا عَنْ شَيْخٍ عَارِفٍ مُتَّصِفٍ بِوَصْفَيْنِ اثْنَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْأَهْلِيَّةُ فِي الْفَنِّ، بِتَمَكُّنِهِ فِي النَّفْسِ.) فيكون موصوفًا بالمعرفة فيه، والقدرة عليه.

(وَالْآخَرُ: النُّصْحُ وَحُسْنُ الْمَعْرِفَةِ بِطُرُقِ التَّعْلِيمِ.) ((فيكون عارفًا بما يصلح للنَّاس وما يَستجِدُّ له من أحوالهم.))

(فَإِنَّ الْعِلْمَ خِزَانَةُ الشَّرِيعَةِ، وَمَفَاتِيحُ الْخِزَانَةِ بِأَيْدِي الْعُلَمَاءِ) فلا يصلُ المتعلِّمُ إلى فتحها إلَّا بعالمٍ مرشد، ودلائلُ الشَّرعِ والعقل متواطئةٌ على تقرير هٰذا المعنى، وأنَّ العلمَ لا يؤخذ إلَّا عن (شَيْخٍ مُرْشِدٍ) ومن ظنَّ أنَّه يُدركهُ دون شيخ (فَلَا يَتَعَنَّ) فإنَّه لا يُدركهُ أبدًا.. ((والأصل فيه ما رواه أبو داود بسندٍ قويٍّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «تسمعون ويُسمع منكم، ويُسمع ممَّن سمع منكم» والعبرة بعموم الخطاب لا بخصوص المخاطَب، فمن علامات العلم في هٰذه الأمَّة كونه موروثًا غير مستأنفٍ يأخذه الخالف عن السَّالف بتلقِّيه عنه، وقد قرَّر هٰذا الأصل وأطال فيه مُطنبًا الشَّاطبيُّ رحمه الله تعالى في كتاب «الموافقات»)).

ثم ذكر أنَّ (الشُّيُوخ لَهُمْ دَرَجَاتٌ وَمَرَاتِبُ يَتَفَاضَلُونَ فِيهَا، وَالَّذِي تَنْبَغِي رِعَايَتُهُ فِيهِمْ هُوَ الْوَصْفَانِ الْمَذْكُورَانِ..، فَمَنْ اجْتَمَعَا فِيهِ مِنَ الشُّيُوخِ فَهُوَ أَوْلَى بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ أَعْلَمَ مِنْهُ.

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ نَاصِحًا عَارِفًا بِطُرُقِ التَّعْلِيمِ أَضَرَّ بِالْمُتَعَلِّمِينَ وَأَوْرَدَهُمْ مَوَارِدَ الْأَذَى) ((ومن لطيف الحكايات في هٰذا المعنى ما ذكره بهجت البيطار علَّامة دمشق في عصره في علوم العربيَّة أنَّ شيخه طاهر بن صالح بن سمعون الجزائري رحمه الله تعالى قال له يومًا: لو جاء رجل لكم يريد أن يتعلَّم في ثلاثة أيام فقولوا: يمكن ذلك، فلعلَّه أن يتعلَّم في هٰذه الأيام الثَّلاثة ما يحبِّبه النَّحو فيستكمل بقيَّته، وهٰذا من حذق الشَّيخ، ومن النَّاس من يكون عكس ذلك، فإذا أردت أن تتعلَّم منه علمًا وعَّره عليك)).

فينبغي أن يحرصَ طالبُ العلم على من تقدَّمَ وصفهُ من الشُّيوخ (فَإِنْ لَمْ يَتَيَسَّرْ مِثْلُهُ أَوْ مَنْ يُقَارِبُهُ، وَفُقِدَ الشَّيْخُ الْمُعَلِّمُ فِي بَلَدٍ أَوْ زَمَنٍ، أَوْ شَقَّ الْوُصُولُ إِلَيْهِ، أَمْكَنَ سُلُوكُ أَحَدِ الطُّرُقِ الْآتِيَةِ) وهٰذه الطُّرُقُ في أخذ العلم هي بمنزلة الميتة التي تُباح للضَّرورة، والعلمُ ضرورةٌ نفسانية وحاجةٌ لازمة للنَّفس، فإذا فقدَ الإنسانُ طريقَ أخذها وهو الشيخُ المعلم جاز له أن يسلُك هٰذه الطُّرق على وجه الضَّرورة لا على وجه كونها أصلًا:

وأوَّلها (اسْتِحْضَارُ شَرْحٍ مُعْتَمَدٍ لِلْأَصْلِ الْمَقْصُودِ، وَتَفَهُّمُ مَعَانِيهِ) فيعمد إلى شرحٍ من الشُّروح المعتمدة لمختصرٍ ما ويتفهَّم منه معاني ذلك المختصر (مَعَ مُرَاجَعَةِ شَيْخٍ عَارِفٍ بِالْفَنِّ فِيمَا أَشْكَلَ مِنْهُ) يعني ممَّن لا يُوجد في بلده، لأنَّه إذا كان الشَّيخُ في بلده كان حقيقًا به أن يقرأ عليه.

ثم الطَّريق **الثَّاني**: (الزِّيَادَةُ عَلَى شَرْحٍ وَاحِدٍ) فيجمعُ شرحين أو أكثر (مَعَ سُلُوكِ مَا مَضَى، وَمَحَلُّ هَذَا إِذَا كَانَتْ شُرُوحُ الْأَصْلِ تَقْصُرُ عَنْ تَوْضِيحِ مَعَانِيهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ ضَمِّ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، أَوْ كَانَ الطَّالِبُ جَيِّدَ الْفَهْمِ قَوِيَّ الْعَقْلِ) فإذا كان معنى ذلك المختصر لا يتمُّ إلا باستحضار عدةُ شروح أو كان الطالبُ جيد الفهم قوي العقل قادرًا أن يجمعَ بالنظر بينها جمع بينها.

و(الثَّالِثُ: الزِّيَادَةُ عَلَى الْمَرْتَبَةِ السَّابِقَةِ بِمُطَالَعَةِ مُدَوَّنَاتِ الْفَنِّ الْمُعْتَمَدَةِ) فإذا كانَ ذلك المختصرُ في الاعتقاد راجعَ مطولاته إذا أشكل عليه منه شيءٌ، أو كان في الفقه راجعَ مطولاته إذا أشكل عليه منه شيءٌ، (وَلَا يَصْلُحُ هَذَا الطَّرِيقُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ الشُّرُوحُ عَلَى الْحَالِ الْمَذْكُورَةِ سَابِقًا) من عدم وفائها بمقاصد المختصر (وَالطَّالِبُ فَوْقَ مَا تَقَدَّمَ) من جودةِ الفهم وقوَّةِ العقل.

ثم ذكر (أَنَّ اخْتِيَارَ طَرِيقٍ دُونَ آخَرَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ قُوَّةِ الْفَهْمِ، وَمَحَلِّ الْفَنِّ الْمَقْصُودِ مِنَ الْعُلُومِ، وَمَنْزِلَةِ الْأَصْلِ الْمُوصِلِ إِلَى فَهْمِهِ بَيْنَ كُتُبِهِ).

ثم ذكر أنَّ (مِنْ أُصُولِ الْمَلَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ مَا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى عَرْضِهِ عَلَى شَيْخٍ – مَعَ كَوْنِ ذَلِكَ أَكْمَلَ –) فربَّما كان من الكتبِ التي تُبنى بها الملكةُ العلمية كُتُبٌ يستطيعُ المرء أن يقرأها بنفسه بعد تقدُّمه في العلم ويستفيدَ منها (كَـ «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ») لابن كثير؛ فإنَّ هٰذا الكتاب من أصول الملكةِ العلميةِ التَّاريخية فإنَّ أصول الملكة العلمية في التَّاريخ تفتقر إلى كتابين:

أحدهما: مَسْرَدُهُ أثري.

والآخر: مسرده أدبي.

فأمَّا الكتابُ الذي مسرده أثريٌّ فهو كتاب «البداية والنِّهاية» لابن كثير.

وأمَّا الكتابُ الذي مسردهُ أدبيٌّ فهو كتاب «الكامل» لابن الأثير، فإن كتاب «الكامل» لابن الأثير من هٰذه الجهة هو من أجودِ الكتب في التَّاريخ، وكان ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى يقدِّمهُ ويفضِّله على بقيَّة كتب التَّاريخ.

ثمّ ذكر أنَّ ما كان من (هَذَا الضَّرْب مِنَ الْأُصُولِ لَا تَحْسُنُ مُطَالَعَتِهِ إِلَّا بَعْدَ التَّضَلُّع مِنْ مُهِمَّاتِ الْعُلُومِ) فإذا استوفى الإنسانُ مُهمات العلوم طالعَ بقية كُتب الملكة العلمية التي لا تحتاجُ إلى كبير فهم، ولا تفتقرُ إلى شيخٍ يوضح معانيها ككتب التَّاريخ أو السيرة أو الأذكار، فإنَّما كان من هٰذا الجنس يحتاجُ إليه طالب العلم في بناء ملكته؛ لكنه لا يضطرُ في كل واحد من هٰذه الكتب أن يقرأها على شيخ، وإن وُجد الشيخ فذلك أكمل؛ لٰكِن إن لم يوجد قرأها الطالب بنفسه مع مراجعةِ شيوخه.

ثم قال: (هَذَا كُلُّهُ حَظُّ الطَّالِبِ مِنْ صِنَاعَةِ الْفَهْمِ عِنْدَ فَقْدِ الشَّيْخِ، أَمَّا صِنَاعَةُ الْحِفْظِ) إذا فقد الشَّيخ (فَلَهُ أَنْ يَعْرِضَ مَحْفُوظَهُ مِنْ نُسْخَةٍ مُصَحَّحَةٍ لِلْأَصْلِ عَلَى قَرِينٍ لَهُ ذِي مَعْرِفَةٍ بِالْفَنِّ) فلابد من شرطين:

أحدهما أن يكون ذلك القرين له معرفةٌ بالفنِّ، فمن أرادَ مثلا من طلاب كلية الحديث أن يحفظ الشَّاطبية فإنَّه يقصدُ إلى قرينٍ له في قسم القراءات.

والثَّاني وأن تكون من نسخةٍ مصحَّحة للأصل، لأنَّ النُّسخَ غير المصحَّحة ربَّما وُجد فيها ما هو غلطٌ.

ومن الكتب التي بأيدي الناس كتبٌ أُدخِل فيها ما ليس منها ككتاب «مراقي السعود» فإن في طبعته القديمة التي لأحدى الدور المصرية فيها بيتانِ ليسا من «مراقي السُّعود» ولٰكِن الطَّابع أعطى هٰذا الكتاب إلى مصححٍ لا يفهم الفن وأمَرهُ أن يُجرِّد المتن من الشَّرح فجردَ المتن من الشرح وهو «شرحُ المصنف الكبير» وكان في ضمنه بيتان نظمَهما الشارحُ عاقدا إحدى المعاني التي ذكرها في شرحه؛ فأخذها هٰذا المصححُ وجعلها في ضمن المتن، فالذي يُطالعه يظنُّ أن هذين البيتين هما من المراقي وهما ليسا كذلك، وإنما هما من شرح الشَّارح رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، ومثلُ هٰذا «منظومةُ القواعد الفقهية لابن سعدي» فإنها بقيت ردحًا من الزمن وهي مشتملةٌ على سقوط بيتين منها حتى صُحِّحت بعد ذلك، فينبغي أن يجتهدَ الإنسان في طلب الكتب المصحَّحة للمتون وأن لا يحفظَ إلا من كتابٍ قد صححه إمَّا ناشره وإما أن يصححه على شيخهِ قبل أن يحفظه. (١)

(١) وقد صححتُ بعض المتون في علوم الآلة التي يحتاجها طالب العلم؛ وهي نظم «نخبة الفِكر» للشُّمُنِّي، و«نظم الآجرُّومية» كما سماهُ مصنفه محمد أُبّ التّواقي، و«نظمُ الورقات» لمحمَّد بن مختار الكُنتي).

ثم قال: (فَإِنْ لَمْ يَجِدْ) يعني الطَّالب (فَلْيَرْتَحِلْ مِنْ بَلَدِهِ فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يَنْعَشُ فِيهَا) يعني لا يحيى فيها (وَلْيَطْلُبْ بَلَدًا يَجِدُ فِيهِ بُغْيَتَهُ، وَإِلَّا بَقِيَ فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ وَالْحَيْرَةِ) ومن لطائفِ إفاداتِ أبي بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى أنه ذكرَ من الهجرةِ المأمورِ بها شرعا الهجرةُ من بلدِ الجهل إلى بلد العلم، فممَّا يُؤمر به الإنسان أن يُهاجر لأجله هجرته من بلدٍ يُفقد فيه العلم إلى بلد يُوجد فيه.

البَيِّنَةُ الثَّامِنَةُ

مِنَ الْقَوَاعِدِ الْأُصُولِ فِي إِدْرَاكِ الْعِلْمِ الْـمَأْمُولِ: تَقْلِيلُ الدُّرُوسِ وَإِحْكَامُ الْـمَدْرُوسِ.

وَعُرْوَةُ الْإِحْكَامِ الْوُثْقَى هِيَ مُلَازَمَةُ التَّكْرَارِ لِلدَّرْسِ، وَالْـحِرْصُ عَلَى مُذَاكَرَةِ الْأَقْرَانِ، فَفِي الْـمُذَاكَرَةِ إِحْيَاءُ الذَّاكِرَةِ، وَالْعِلْمُ غَرْسُ الْقَلْبِ، وَالْغَرْسُ بِلَا سُقْيَا يَمُوتُ، وَسُقْيَا الْعِلْمِ مُذَاكَرَتُهُ.

وَمِنْ بَدَائِعِ الْأَلْفَاظِ الْـمُسْتَجَادَةِ مِنْ قَرَائِحِ الْـحُفَّاظِ قَوْلِ أَبِي الحَجَّاجِ المِزِّيِّ الْـحَافِظِ رَحِمَهُ اللهُ:

مَنْ حَازَ الْعِلْمَ وَذَاكَرَهُ ... حَسُنَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهُ

فَأَدِمْ لِلْعِلْمِ مُذَاكَرَةً ... فَحَيَاةُ الْعِلْمِ مُذَاكَرَتُهُ[1]

وَعَاقِبَةُ تَرْكِ الْـمُذَاكَرَةِ فَقْدُ الْعِلْمِ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: (إِنَّمَا يُذْهِبُ الْعِلْمَ النِّسْيَانُ، وَتَرْكُ الْـمُذَاكَرَةِ)[2].

وَتَرْكُ الِاسْتِذْكَارِ بَعْدَ التَّحَفُّظِ وَالتَّفَهُّمِ يَضِيعُ بِهِ زَمَنٌ طَوِيلٌ فِي ابْتِغَاءِ اسْتِرْجَاعِ مَفْهُومٍ ذَهَبَتْ مَعَانِيهِ، أَوْ مَحْفُوظٍ نُسِيَتْ مَبَانِيهِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[3] عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ الْـمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ».

قَالَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «التَّمْهِيدُ»[4] يُبَيِّنُ مَعْنَاهُ: (وَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ الْـمُيَسَّرُ لِلذِّكْرِ كَالإِبِلِ الْـمُعَقَّلَةِ، مَنْ تَعَاهَدَهَا أَمْسَكَهَا، فَكَيْفَ بِسَائِرِ الْعُلُومِ؟!).

ذكرَ المصنِّفُ وفَّقه الله في هٰذه البيِّنة أنَّ (مِنَ الْقَوَاعِدِ الْأُصُولِ فِي إِدْرَاكِ الْعِلْمِ الْـمَأْمُولِ: تَقْلِيلُ الدُّرُوسِ وَإِحْكَامُ الْـمَدْرُوسِ. وَعُرْوَةُ الْإِحْكَامِ الْوُثْقَى هِيَ مُلَازَمَةُ التَّكْرَارِ لِلدَّرْسِ، وَالْـحِرْصُ عَلَى مُذَاكَرَةِ الْأَقْرَانِ)

---

(١) رواه الثَّعالبيُّ في «منتخب الأسانيد» ص ١٣٠ بإسناده إليه، وكذلك الحسيني في «كفاية الرَّاوي والسَّامع» ص ١٣٤ من مختصره المذكور في الأنوار الجليَّة للطَّباخ، وعنده: (صلُحت) موضعَ (حسُنت)، وبها ذكره السَّخاويُّ في «فتح المغيث» ٣/ ٣١٨، دون عزوٍ، وبالجهل بقائله اشتُهر، فاستفد معرفةَ قائلَه غنيمةً باردةً.

(٢) أخرجه ابن عبد البرِّ في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٢١٣، والخطيب في «الجامع» رقم (٩٤٩).

(١) أخرجه البخاري في (٧٠) ك: فضائل القرآن، (٢٣) ب: استذكار القرآن وتعاهده، رقم (٥٠٣١)، ومسلم في (٧) ك: صلاة المسافرين، (٣٣) ب: الأمر بتعهُّد القرآن، رقم (١٨٧٥).

(٢) ٣/ ٢٠٢.

فينبغي أن يُكثرَ طالب العلم من تكرار درسهِ مرةً بعد مرةٍ، وأن يذاكر به أقرانه، فإنّ (الْـمُذَاكَرَةِ إِحْيَاءُ الذَّاكِرَةِ، وَالْعِلْمُ غَرْسُ الْقَلْبِ، وَالْغَرْسُ بِلَا سُقْيَا يَمُوتُ، وَسُقْيَا الْعِلْمِ مُذَاكَرَتُهُ) فينبغي أن يَسقي طالبُ العلم علمه بالمذاكرة.

ثم ذكرَ (وَمِنْ بَدَائِعِ الْأَلْفَاظِ الْـمُسْتَجَادَةِ) بيتان لطيفان هما لأبي الحجاج المزي الحافظ صاحب «تحفة الأشراف»:

مَنْ حَازَ الْعِلْمَ وَذَاكَرَهُ حَسُنَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهْ
فَأَدِمْ لِلْعِلْمِ مُذَاكَرَةً فَحَيَاةُ الْعِلْمِ مُذَاكَرَتُهْ(١)

ثم ذكر عن ابن شهاب قوله: (إِنَّمَا يُذْهِبُ الْعِلْمَ النِّسْيَانُ، وَتَرْكُ الْـمُذَاكَرَةِ). ((والمراد بالمذاكرة مفاعلة، من التَّذكُّر، فهي لا تكون إلَّا بين اثنين وصاعدًا، وما درج عند النَّاس من تسمية المذاكرة في حقِّ الواحد فيسمَّى مطالعة.))

ثم أوردَ شاهدهُ المصدِّق له من السُّنّة النَّبويَّة وهو قوله ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ الْـمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا» يعني إن راقبها وتابعها حفظها «وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ» وعَسُرَ عليه ردُّها، قال ابن عبد البر: (وَإِذَا كَانَ الْقُرْآنِ الْـمُيَسَّرُ لِلذِّكْرِ كَالإِبِلِ الْـمُعَقَّلَةِ، مَنْ تَعَاهَدَهَا أَمْسَكَهَا، فَكَيْفَ بِسَائِرِ الْعُلُومِ؟!) فيحتاجُ الإنسان إلى أن يُديم مذاكرتهُ للعلم، وأن يُلزِمَ نفسه لذلك لئلا يذهب علمه، ومن نبُلَ من الشُّيوخ الكبار في كل بلدٍ فإنِّي وجدتهم جمعوا معنيين:

أحدهما حرصهم على حفظ الأصول وفهمها.

وثانيهما حرصهم على بقاءِ معاينها في قلوبهم.

فهم يدرِّسونها ويَردون النظر إليها مرةً بعد مرةٍ بالمطالعة، وربما لم يتجاوزوا تدريسها، لكن تجدُ فيهم من إتقان العلم وفهمه ما لا تجده في أناس يبحرون تارةً نحو اليمين وتارةً نحو الشِّمال، ويتوسعون في كتبٍ تكون حصيلةُ ذلك التَّوسع أنهم لا يدركون مطلوبهم في العلم.

فينبغي للإنسان أن يمسكَ في تلك الأصول وأن يكرر النَّظر فيها مرةً بعد مرةٍ وأن يُذاكر فيها أقرانه وأصحابه،

(١) رواه الثَّعالبيُّ في «منتخب الأسانيد» ص ١٣٠ بإسناده إليه، وكذلك الحسيني في «كفاية الرَّوي والسَّامع» ص ١٣٤ من مختصره المذكور في الأنوار الجليَّة للطَّباخ، وعنده: (صلُحت) موضعَ (حسُنت)، وبها ذكره السَّخاويُّ في «فتح المغيث» ٣/ ٣١٨، دون عزوٍ، وبالجهل بقائله اشتُهِر، فاستفد معرفةَ قائلَه غنيمةً باردةً.

وأن يجعلها هِجّيراه حتى يتوفاه الله ﷻ فإنّ مردَّ العلم إلى هٰذه الأصول، وكما تعلمون فإنَّ القرآن هو أصل العلم، فالعلمُ كله مردودٌ بين دفتيه، فكذلك العلمَ النافع هو مجموعٌ بين دفَّات الكتبِ المتداولة المعروفة، وما زاد عنها فهو من العلمِ الزائد، وكثيرٌ من السَّلف أشاروا إلى هٰذا كما قال بعضهم: العلم ما جاءَ من هنا ومن هنا. يعني لشهرته وتداوله بين النَّاس، فهٰذا هو العلمُ الذي يُحتاجُ إليه.

((وقد روى أبو نعيم الأصفهاني بسند صحيح عن عبد العظيم بن العباس العنبلي عن مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى قال: كان الرَّجل يختلف إلى الرَّجل ثلاثين سنة ليتعلَّم منه العلم. وهٰذه الكلمة يستعظمها المرء إذا سمعها، ذاك في زمن كان أحدهم يفرغ للعلم يومه كلَّه، ونحن اليوم في زمن لا يفرغ للعلم إلا يسيره، ومع ذلك كان أحدهم شيخه مدَّة مديدة لعلمهم أنَّ العلم لا يصلح إلَّا بتكراره مرَّة بعد مرَّة.

ثم إنَّ ما يُطلب من صحبة العلماء والشُّيوخ ليس هو علم المسائل فقط، بل علم الأحوال هو من أعظم ما يُعلم من صحبة المشايخ، وهٰذه الأحوال إمَّا بجهد من الدُّنيا أو معاملتهم للنَّاس أو كيفية طرائق معاملتهم للحوادث، فهٰذا أمر لا يلتمسه الإنسانفي اليوم والليلة، والسَّنة والسَّنتين، وإنَّما يلتمس بمدَّة مديدة، فهو بصحبتهم يعرف متى يتكلَّم، وإذا تكلَّم كيف يتكلَّم، ويعرف بصحبتهم متى يفتي، وإذا أفتى ماذا يقول فتواه، ويعرف متى يدرِّس وإذا درَّس ماذا يدرِّس، وإذا درَّس كيف يدرِّس، وهٰذه الأمور لا توجد في الكتب، وإنَّما هي شيءٌ يوفد عن التَّلقِّي من العلماء فمن صحب العلماء سمع منهم أشياءً تدلُّ على أنَّ العلم بهذه المنزلة فإنَّك لا تصل إلى هٰذه المنزلة إلَّا بصحبة هؤلاء العلماء الرَّاسخين.

والمقصود أنَّ الإنسان ينبغي له أن يستذكر علومه إمَّا بتكرار مرَّة بعد مرَّة أو بملازمة حلقات العلماء التي يكررون فيها الكتب مرَّة بعد مرَّة، وكان من مضى يُذكر عنه مثل هٰذه الأمور ما بعض الناس يرونه ضرب من الخيال، أو تضييعا للوقت، وقد ذُكر من أخبار ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى أنَّه درَّس «ثلاثة الأصول وأدلتها» في بلدة الدَّلم حينما كان قاضيًا أكثر من مائة مرة، وتلك المائة مرَّة كان كلّ مرَّة يشرح فيها ويعلِّق، فهو يرى من عبوديته لله بث العلم النَّافع، ومنه هٰذا الأصل كما يرى أنَّ من الأنفع للنَّاس أن يُعيدوا هٰذه المتون مرَّة بعد مرَّة، ولو أنَّك قرأت سير العلماء إلى وقتٍ قريب في الكويت وغيرها تجد أنَّه يكرِّرون الكتاب مرَّة بعد مرَّة، واعتبر هٰذا بحال فقيه الكويت في وقته الشَّيخ محمَّد بن سلمان رَحِمَهُ اللَّهُ فإنَّه كان يكرِّر كتاب «دليل الطالب» مرَّة بعد مرَّة وربَّما ختمه في السَّنة الواحدة أكثر من مرَّة في دروسه بعد صلاة الفجر.

فإنَّ من يعرف حقيقة العلم يُدرك أنَّ العلم لا يدرك إلَّا بكثرة تكراره مرَّة فمرَّة، إمَّا بأصلٍ واحدٍ أو بأصولٍ متنوِّعة ترجع إلى معنى واحد.))

الْبَيِّنَةُ التَّاسِعَةُ

فِي التَّأَنِّي نَيْلُ بُغْيَةِ الْـمُتَمَنِّي، وَالثَّبَاتُ نَبَاتٌ، وَإِنَّمَا يُجْمَعُ الْعِلْمُ بِطُولِ الْـمُدَّةِ وَتَجْوِيدُ العُدَّةِ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ يُوصِي صَاحِبَهُ يُونُسَ بْنَ يَزِيدَ الْأَيْلِيَّ:

(يَا يُونُسُ لَا تُكَابِرِ الْعِلْمَ، فَإِنَّ الْعِلْمَ أَوْدِيَةٌ، فَأَيُّهَا أَخَذْتَ فِيهِ قَطَعَ بِكَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَهُ، وَلَكِنْ خُذْهُ مَعَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، وَلَا تَأْخُذِ الْعِلْمَ جُمْلَةً، فَإِنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جُمْلَةً ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً، وَلَكِنِ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ مَعَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ)(١).

فَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ فِي أَيَّامٍ وَلَيَالٍ فَقَدْ طَلَبَ الْـمُحَالَ، وَمَنْ حَشَا قَلْبَهُ بِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا سَالَ وَادِيهِ وَأَرْوَى قَاصِدِيهِ، وَنِهَايَةُ الْعَجُولِ تَشَتُّتٌ وَأُفُولٌ.

قَالَ الْـخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَقِيهِ وَالْـمُتَفَقِّهِ»(٢): (اعْلَمْ أَنَّ الْقَلْبَ جَارِحَةٌ مِنَ الْجَوَارِحِ، تَحْتَمِلُ أَشْيَاءَ، وَتَعْجَزُ عَنْ أَشْيَاءَ، كَالْجِسْمِ الَّذِي يَحْتَمِلُ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يَحْمِلَ مِائَتَيْ رَطْلٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ عِشْرِينَ رَطْلًا، وَكَذَلِكَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي فَرَاسِخَ فِي يَوْمٍ؛ لَا يُعْجِزُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي بَعْضَ مِيلٍ فَيُضِرُّ ذَلِكَ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْكُلُ مِنَ الطَّعَامِ أَرْطَالًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُتْخِمُهُ الرَّطْلُ فَمَا دُونَهُ؛ فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ: مِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْفَظُ عَشْرَ وَرَقَاتٍ فِي سَاعَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَحْفَظُ نِصْفَ صَفْحَةٍ فِي أَيَّامٍ، فَإِذَا ذَهَبَ الَّذِي مِقْدَارُ حِفْظِهِ نِصْفُ صَفْحَةٍ يَرُومُ أَنْ يَحْفَظَ عَشْرَ وَرَقَاتٍ تَشَبُّهًا بِغَيْرِهِ لَحِقَهُ الْـمَلَلُ، وَأَدْرَكَهُ الضَّجَرُ، وَنَسِيَ مَا حَفِظَ، وَلَـمْ يَنْتَفِعْ بِمَا سَمِعَ).

ذكرَ المصنِّفُ وفقه الله في (**الْبَيِّنَةُ التَّاسِعَةُ**) أنَّ (فِي التَّأَنِّي نَيْلُ بُغْيَةِ الْـمُتَمَنِّي، وَالثَّبَاتُ نَبَاتٌ) وأنَّ العلمَ إنما (يُجْمَعُ .. بِطُولِ الْـمُدَّةِ وَتَجْوِيدُ العُدَّةِ) فيحتاجُ الإنسانُ إلى مدَّةٍ مديدةٍ في أخذ العلم يكونُ فيها ثابتا في طلبه حتى يرجعَ نابتا فيه وأوردَ من كلام أهل العلم ما يصدقهُ وهو كلامُ الزُّهري إذ قال موصيًا لصاحبه يونسَ بن يزيد الأيلي: (وَلَكِنْ خُذْهُ مَعَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، وَلَا تَأْخُذِ الْعِلْمَ جُمْلَةً، فَإِنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جُمْلَةً ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً، وَلَكِنِ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ مَعَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ) فلابدَّ أن يصبرَ طالبُ العلم في أخذه وأن يتأنَّى في طلبه.

((كما قال ابن النَّحَّاس فيما ذكره عنه السُّيُوطي في «بغية الوعاة» :

اليوم شيءٌ وغدًا مثله   من نخب العلم التي تلتقط

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» رقم (٦٥٢، ٦٥٣) والخطيب في «الجامع» رقم (٤٥٢)، وإسناده صحيحٌ.

(٢) ٢/ ٢١٥.

يحصِّل المرء بها حكمة وإنَّما السَّيل إجتماع النُّقط.

ومن طلب العلم في أيَّام وليال فقد طلب المحال.))

ولهٰذا فإنَّ هٰذا البرنامجَ ونظائرهُ لا ينبغي أن يكون منتهى نظر طالب العلم في أخذه؛ بل المقصودُ أن يكون محفِّزا له، محرِّكًا لطلب العلم، فيعيدُ سماعَ ما حُفظ منه صوتيا مرةً أخرى ويدقق الفهم لمسائله حتى تعظمُ فائدته منه، ثم يكررَ ذلك بالمذاكرةِ مع أقرانه حتى يتمَ له الانتفاع به.

ثم أورد ما يصدِّقُ ذلك من كلامِ الخطيب البغدادي في بيان (أَنَّ الْقَلْبَ جَارِحَةٌ مِنَ الْجَوَارِحِ، تَحْتَمِلُ أَشْيَاءَ، وَتَعْجَزُ عَنْ أَشْيَاءَ) فكما أنَّ الجوارحَ الظَّاهرة تحتملُ أشياءَ وتعجزُ عن أشياءَ فكذلكَ الجوارح الباطنة من القلب وغيره تحتملُ أشياءَ وتعجزُ عن أشياءَ ((فإذا أخذ الإنسان الشَّيء بعد الشَّيء قدر القلب على حمله والعلم ثقيل، وقد ذكر ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» أنَّ رجلا قال للإمام مالك: أسألك مسألة سهلة، فغضب رَحِمَهُ اللهُ وقال: العلم ثقيل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[المزمل] ومعنى ثقل العلم أنَّه يجعل على القلب مهابة لمن هجم عليه، ومن أخذه شيئا فشيئًا قدر على حمله، وأمَّا الذي يهجم عليه دفعة واحدة فإنه سيجد فيه ثقلًا شديدًا أكثر من الثِّقل الذي يريد حمله وهو لا يقدر عليه)).

((وفي أخبار بعض علماء شنقيط أنَّه كان عند أخذه ألفية ابن مالك يحفظ بيتًا واحدًا ويعرضه على شيخه، فقال له بعض رفقته: ألا تعجّل لترجع إلى أهلك، قال: العجلة أردت، ومعنى قوله: العجلة أردت ، أنَّه يريد أن يستوفي فهم هٰذا البيت مرَّة ثانية، وسؤاله على ما تضمَّنه من العلم.))

البَيِّنَةُ العَاشِرَةُ

لِكُلِّ صِنَاعَةٍ عُدَّةٌ تُقَرِّبُ نَوَاهَا، وَتُذَلِّلُ صِعَابَهَا، وَعُدَّةُ التَّعَلُّمِ آلَةُ الْـمُتَعَلِّمِ، فَمَنْ كَانَتْ مَعَهُ الْآلَةُ بَلَغَ ذُرْوَةَ الْعِلْمِ؛ وَإِلَّا وَقَفَ دُونَهَا.

وَأَوْعَى مَقَالَةٍ بَيَّنَتْ آلَةَ الْعِلْمِ - مِمَّا طَالَعْتُهُ - مَا سَاقَهُ الْـمَاوَرْدِيُّ فِي «أَدَبِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ»(١)، وَقَدْ جَعَلَهَا تِسْعَةَ أُمُورٍ – مَعَ مَا يُلَاحِظُ الْـمُتَعَلِّمَ مِنَ التَّوفِيقِ، وَيُمَدُّ بِهِ مِنَ الْـمَعُونَةِ -:

الْأَوَّلِ: الْعَقْلُ الَّذِي بِهِ تُدْرَكُ حَقَائِقُ الْأُمُورِ.

وَالثَّانِي: الْفِطْنَةُ الَّتِي يَتَصَوَّرُ بِهَا غَوَامِضَ الْعُلُومِ.

وَالثَّالِثُ: الذَّكَاءُ الَّذِي يَسْتَقِرُّ بِهِ حِفْظُ مَا تَصَوَّرَهُ، وَفَهْمُ مَا عَلِمَهُ.

وَالرَّابِعُ: الشَّهْوَةُ الَّتِي يَدُومُ بِهَا الطَّلَبُ، وَلَا يُسْرِعُ إِلَيْهَا الْـمَلَلُ.

وَالْخَامِسُ: الاكْتِفَاءُ بِمَادَّةٍ(٢) تُغْنِيهِ عَنْ كُلَفِ الطَّلَبِ.

وَالسَّادِسُ: الْفَرَاغُ الَّذِي يَكُونُ مَعَهُ التَّوَفُّرُ، وَيَحْصُلُ بِهِ الاسْتِكْثَارُ.

وَالسَّابِعُ: عَدَمُ الْقَوَاطِعِ الْـمُذهِلَةِ؛ مِنْ هُمُومٍ وَأَشْغَالٍ وَأَمْرَاضٍ.

وَالثَّامِنُ: طُولُ الْعُمُرِ، وَاتِّسَاعُ الْـمُدَّةِ؛ لِيَنْتَهِيَ بِالاسْتِكْثَارِ إِلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ.

وَالتَّاسِعُ: الظَّفَرُ بِعَالِمٍ سَمْحٍ بِعِلْمِهِ، مُتَأَنٍّ فِي تَعْلِيمِهِ.

ذكرَ المصنِّفُ وفَّقه الله فِي هٰذه (**البَيِّنَة العَاشِرَة**) أنَّ (لِكُلِّ صِنَاعَةٍ عُدَّةٌ تُقَرِّبُ نَوَاهَا، وَتُذَلِّلُ صِعَابَهَا، وَعُدَّةُ التَّعَلُّمِ آلَةُ الْـمُتَعَلِّمِ، فَمَنْ كَانَتْ مَعَهُ الْآلَةُ بَلَغَ ذُرْوَةَ الْعِلْمِ؛ وَإِلَّا وَقَفَ دُونَهَا.) فمن لم تكن معهُ آلـةُ العلـم فإنَّه لا يستطيعُ فإنه لا يستطيع بلوغه (وَأَوْعَى مَقَالَةٍ بَيَّنَتْ آلَةَ الْعِلْمِ - مِمَّا طَالَعْتُهُ - مَا سَاقَهُ الْـمَاوَرْدِيُّ فِي «أَدَبِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ»، وَقَدْ جَعَلَهَا تِسْعَةَ أُمُورٍ – مَعَ مَا يُلَاحِظُ الْـمُتَعَلِّمَ مِنَ التَّوفِيقِ) الإلهي (، وَيُمَدُّ بِهِ مِنَ الْـمَعُونَةِ -) الرَّبانية:

فأوّلها (الْعَقْلُ الَّذِي بِهِ تُدْرَكُ حَقَائِقُ الْأُمُورِ) فيكونُ للطَّالبِ بعقله مُكنةٌ في فهم العلم الذي يُلقى إليه.

(وَالثَّانِي: الْفِطْنَةُ الَّتِي يَتَصَوَّرُ بِهَا غَوَامِضَ الْعُلُومِ) أي النَّباهةُ التي يتصَّورُ بها غوامض العلوم.

---

(١) ص١٠٤.

(١) المادة: المال.

(وَالثَّالِثُ: الذَّكَاءُ الَّذِي يَسْتَقِرُّ بِهِ حِفْظُ مَا تَصَوَّرَهُ، وَفَهْمُ مَا عَلِمَهُ.) أي القوَّةُ الذِّهنية التي تُمدُّه بالحفظ والفهم.

(وَالرَّابِعُ: الشَّهْوَةُ الَّتِي يَدُومُ بِهَا الطَّلَبُ، وَلَا يُسْرَعُ إِلَيْهَا الْـمَلَلُ) فإنَّ النَّهمةَ في الطَّلب من أعظمِ المحرِّكات وقد ذكرَ أبو عمر ابن عبد البر أنَّ البخاريَّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى سُئِل عن دواء الحفظ فقال: (لا أجدُ مثل نهمةِ الرَّجل وإدمانَ النَّظر في الكتب)، ومقصوده بـ(نهمةِ الرَّجل) يعني شهوته ورغبته في العلم. ((وسئل عبد الله بن المبارك: كيف تحفظ؟ قال: إنَّما هو إن اشتهيت حديثًا حفظته. فإذا وُجدت الشَّهوة الدَّاعية إلى محبَّة العلم تمكَّن الإنسان من حفظ العلم وفهمه.))

(وَالْخَامِسُ: الاكْتِفَاءُ بِمَادَّةٍ تُغْنِيهِ عَنْ كُلَفِ الطَّلَبِ) يعني الاكتفاءُ بمالٍ يسدُّ حاجته في ما يُريدهُ من كُلَف طلبه.

(وَالسَّادِسُ: الْفَرَاغُ الَّذِي يَكُونُ مَعَهُ التَّوَفُّرُ، وَيَحْصُلُ بِهِ الاسْتِكْثَارُ.)

وَالسَّابِعُ: عَدَمُ الْقَوَاطِعِ الْـمُذهِلَةِ؛ مِنْ هُمُومٍ وَأَشْغَالٍ وَأَمْرَاضٍ.

وَالثَّامِنُ: طُولُ الْعُمُرِ، وَاتِّسَاعُ الْـمُدَّةِ؛ لِيَنْتَهِيَ بِالاسْتِكْثَارِ إِلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ.

وَالتَّاسِعُ: الظَّفَرُ بِعَالِمٍ سَمْحٍ بِعِلْمِهِ، مُتَأَنٍّ فِي تَعْلِيمِهِ.) ((يأخذ الطَّالبَ شيئًا فشيئًا فيُرقِّيه فيه)) ومن مشهورِ كلام أهل العلم في ذكرِ آلةِ العلم قولهم رحمهم الله تعالى: آلةُ العلم: **شَيْخٌ فَتَّاحٌ، وَكُتُبٌ صِحَاحٌ، وَمُدَاوَمَةٌ، وَإِلْحَاحٌ.**

ما معنى (شيخ فتَّاح)؟ يعني يفتحُ ما استغلق من العلم، ولِماذا لم يقل: شيخ شارح؟ لأن مقصودهم أعظمُ من ذلك، وهو كونه مرشدا إلى الله ﷻ، فإن العلمَ لا يُنال إلا بتوفيق الله عز وجل والفتحُ من المعاني الصحيحةِ في الحقائق الإيمانية القلبية، فإنَّ مما يُستمد به التوفيقُ والعناية فتحُ الله عز وجل لعبده.

(وكتبٌ صِحاح) يجمع معنيين:

أحدهما أن تكون معتمدةً.

والثَّاني أن تكون مصححةً في نسخها.

فإذا لم يكن الكتاب معتمدا لم يدخل في وصفِ الكتب الصحاح، وكذلك إن كان معتمدا ولكن غير مُصحح لا يدخل في ذلك.

ثم الثالث (**ومداومةٌ وإلحاح**) يعني طول طلب له.

وذكر أحمد بن علي المنجور -من علماء المغرب- ((في «فهرسته»)) أن بعض الأذكياء من أصحابه زاد: (وَقِدْرٌ فَوَّاحٌ)؛ يعني الكفاية من العيش، بأن تكون له كفايةٌ من العيش؛ لأنّ الطَّالب لم يكن له ما يتقوَّت فاشتغلَ في طلبِ ذلك أشغله عن العلم، قال المنجور في «فهرسته»: وزدتُ (وَأَنْ لَا يَكُونُ مِنَ الْأَقْحَاحِ) يعني من أهل الجفاء.

وزدتُ سادسًا وهو: (وَمَدَارِسُ فِسَاحٌ) والمدارسُ نقصدُ بها الأماكن الموقوفة على طلبةِ العلم في سكناهم وتلقينهم العلم؛ فبهذهِ المدارس حُفظ العلم في كثيرٍ من البلاد الإسلام إلى يومنا هٰذا.

الخاتمة

قَالَ مُحَمَّدُ مُرْتَضَى بْنُ مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنِيُّ الزَّبِيدِيُّ:

رَوَى ابْنُ عَبْدِ البَرِّ ذُو الإِتْقَانِ … فِي طُرَّةٍ مِنْ «جَامِعِ البَيَانِ»[1]

أُرْجُوزَةً تُعْجِبُ مَنْ رَآهَا … إِلَى الإِمَامِ اللُّؤْلُئِي عَزَاهَا

مَنْظُومَةً كَالْجَوْهَرِ الْمَكْنُونِ … وَقِيلَ عَزْوُهَا إِلَى الْمَأْمُونِ

أَوْرَدْتُهَا هُنَا لِحُسْنِ سَوْقِهَا … لِلْغَائِصِينَ فِي بِحَارِ ذَوْقِهَا

وَنَصُّهَا مِنْ بَعْدِ حَمْدِ اللهِ … مُصَلِّيًا عَلَى رَسُولِ اللهِ

اِعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ … وَالحِفْظِ وَالإِتْقَانِ وَالتَّفَهُّمِ

وَالعِلْمُ قَدْ يُرْزَقُهُ الصَّغِيرُ … فِي سِنِّهِ وَيُحْرَمُ الكَبِيرُ

فَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ … لَيْسَ بِرِجْلَيْهِ وَلَا يَدَيْهِ

لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ الْمُرَكَّبْ … فِي صَدْرِهِ وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبْ

وَالعِلْمُ بِالفَهْمِ وَبِالْمُذَاكَرَةْ … وَالدَّرْسِ وَالفِكْرَةِ وَالْمُنَاظَرَةْ

فَرُبَّ إِنْسَانٍ يَنَالُ الحِفْظَا … وَيُورِدُ النَّصَّ وَيَحْكِي اللَّفْظَا

وَمَا لَهُ فِي غَيْرِهِ نَصِيبُ … مِمَّا حَوَاهُ الْعَالِمُ الأَدِيبُ

وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَدِيدِ الحُبِّ … لِلْعِلْمِ وَالذِّكْرِ بَلِيدِ القَلْبِ

مُعَجَّزٌ فِي الحِفْظِ وَالرِّوَايَةْ … لَيْسَتْ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَةْ

وَآخَرٌ يُعْطَى بِلَا اجْتِهَادِ … حِفْظًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الإِسْنَادِ

يُفِيدُهُ بِالْقَلْبِ لَا بِنَاظِرِهْ … لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهْ

فَالْتَمِسِ العِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ … وَالْعِلْمُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالأَدَبْ

الأَدَبُ النَّافِعُ: حُسْنُ الصَّمْتِ … فَفِي كَثِيرِ القَوْلِ بَعْضُ الْمَقْتِ

فَكُنْ لِحُسْنِ الصَّمْتِ مَا حَيِيتَا … مُقَارِنًا تُحْمَدُ مَا بَقِيتَا

وَإِنْ بَدَتْ بَيْنَ أُنَاسٍ مَسْأَلَهْ … مَعْرُوفَةٌ فِي العِلْمِ أَوْ مُفْتَعَلَهْ

فَلَا تَكُنْ إِلَى الْجَوَابِ سَابِقَا … حَتَّى تَرَى غَيْرَكَ فِيهِ نَاطِقَا

فَكَمْ رَأَيْتُ مِنْ عَجُولٍ سَابِقِ … مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ بِالْخَطَاءِ نَاطِقِ

أَزْرَى بِهِ ذَلِكَ فِي الْمَجَالِسِ … بَيْنَ ذَوِي الأَلْبَابِ وَالتَّنَافُسِ

الصَّمْتُ فَاعْلَمْ بِكَ حَقًّا أَزْيَنُ … إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنُ

وَقُلْ إِذَا أَعْيَاكَ ذَاكَ الأَمْرُ … مَا لِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خُبْرُ

(١) يعني في قطعةٍ من كتابه «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٢٩٢-٢٩٣.

فَذَاكَ شَطْرُ العِلْمِ عِنْدَ العُلَمَا ... كَذَاكَ مَا زَالَتْ تَقُولُ الْحُكَمَا
إِيَّاكَ وَالْعُجْبَ بِفَضْلِ رَأْيِكَ ... وَاحْذَرْ جَوَابَ القَوْلِ مِنْ خِطَابِكَ
كَمْ مِنْ جَوَابٍ أَعْقَبَ النَّدَامَهْ ... فَاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَهْ
العِلْمُ بَحْرٌ مُنْتَهَاهُ يَبْعُدُ ... لَيْسَ لَهُ حَدٌّ إِلَيْهِ يُقْصَدُ
وَلَيْسَ كُلُّ العِلْمِ قَدْ حَوَيْتَهُ ... أَجَلْ وَلَا العُشْرُ وَلَوْ أَحْصَيْتَهُ
وَمَا بَقِي عَلَيْكَ مِنْهُ أَكْثَرُ ... مِمَّا عَلِمْتَ وَالْجَوَادُ يَعْثُرُ
فَكُنْ لِمَا عَلِمْتَهُ مُسْتَفْهِمَا ... إِنْ كُنْتَ لَا تَفْهَمُ مِنْهُ الكَلِمَا
القَوْلُ قَوْلَانِ فَقَوْلٌ تَعْلَمُهْ ... وَآخَرٌ تَسْمَعُهُ فَتَجْهَلُهْ
وَكُلُّ قَوْلٍ فَلَهُ جَوَابُ ... يَجْمَعُهُ البَاطِلُ وَالصَّوَابُ
وَلِلْكَلَامِ أَوَّلٌ وَآخِرُ ... فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْكَ حَاضِرُ
لَا تَدْفَعِ القَوْلَ وَلَا تَرُدَّهُ ... حَتَّى يُؤَدِّيكَ إِلَى مَا بَعْدَهُ
فَرُبَّمَا أَعْيَا ذَوِي الفَضَائِلِ ... جَوَابُ مَا يُلْقَى مِنَ الْمَسَائِلِ
فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِهِ ... عِنْدَ اعْتِرَاضِ الشَّكِّ فِي صَوَابِهِ
وَلَوْ يَكُونُ القَوْلُ عِنْدَ النَّاسِ ... مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَا بِلَا الْتِبَاسِ
إِذًا لَكَانَ الصَّمْتُ مِنْ عَيْنِ الذَّهَبْ ... فَافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبْ
إِلَى هُنَا قَدِ انْتَهَى الْمَنْقُولُ ... فَاسْمَعْ هُدِيتَ الرُّشْدَ مَا أَقُولُ
الْعِلْمُ أَصْلُ الدِّينِ وَالإِحْسَانِ ... طَرِيقُ كُلِّ الْخَيرِ وَالْجِنَانِ
دَلَّ عَلَى تَفْضِيلِهِ الْبُرْهَانُ ... وَسُنَّةُ النَّبِيِّ وَالقُرْآنُ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَا ... وَعُصْبَةٌ بِالْعِلْمِ يَجْهَلُونَا
لَا تَدْعُ إِلَّا الْعُلَمَاءَ نَاسَا ... لِغَيْرِهِمْ لَا تَرْفَعَنَّ رَاسَا
وَهْوَ مَعَ التُّقَى هُدًى وَنُورُ ... وَهْوَ مَعَ الزَّيْغِ بَذًى وَبُورُ
فَالْعِلْمُ إِنْ زَادَ وَلَمْ يَزْدَدْ هُدَى ... صَاحِبُهُ لَمْ يَسْتَفِدْ إِلَّا رَدَى
فَلَا تُعَدُّ ذَاتُهُ فَضِيلَهْ ... إِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى الهُدَى وَسِيلَهْ
فَإِنَّهُ كَالكِذْبِ وَالْخَيَالِ ... يَكُونُ عِنْدَ الْخَلْقِ لِلْأَعْمَالِ
فَحَقُّ أَهْلِ الْعِلْمِ صِدْقُ النِّيَّةِ ... وَالِاجْتِهَادُ فِي صَفَا الطَّوِيَّةِ
وَالْجِدُّ فِي التَّقْوَى بِخَيْرِ سِيرَةٍ ... لِيَسْتَقِرَّ الْعِلْمُ فِي الْبَصِيرَةِ

فعِلْـــمُ ذِي الأَنْـــوَارِ فِي جَنَانِـــهِ وَعِلْـــمُ ذِي الأَوْزَارِ فِي لِسَـــانِهِ
وَإِنَّ عُنْـــوَانَ عُلُـــومِ الـــدِّينِ فِي الصِّـــدْقِ وَالْـــخَشْيَةِ وَالْيَقِـــينِ
وَأَفْضَـــلُ العُلُـــوْمِ: عِلْـــمٌ يَقْـــتَرِبْ بِـــهِ الفَتَـــى مِـــنْ رَبِّـــهِ فِـــيمَا يُحِـــبْ(١)
فَلْيَبْـــذُلِ الْـــجُهْدَ بِـــمَا يَزِيـــدُهُ نُـــورَ الْـــهُدَى فِي كُـــلِّ مَـــا يُفِيـــدُهُ
وَبِـــالْأَهَمِّ فَـــالْأَهَمِّ يَنْتَقِـــيْ مِـــنْ كُـــلِّ فَـــنٍّ مَـــا يُفِيـــدُ مَـــا بَقِـــيْ
فَـــإِنَّ أَنْـــوَاعَ العُلُـــوْمِ تَخْـــتَلِطْ وَبَعْضُـــهَا بِشَـــرْطِ بَعْـــضٍ مُـــرْتَبِطْ
فَـــمَا حَـــوَى الغَايَـــةَ فِي أَلْـــفِ سَـــنَهْ شَـــخْصٌ فَخُـــذْ مِـــنْ كُـــلِّ فَـــنٍّ أَحْسَـــنَهْ
بِحِفْـــظِ مَـــتْنٍ جَـــامِعٍ لِلـــرَّاجِحِ تَأْخُـــذُهُ عَـــلَى مُفِيـــدٍ نَاصِـــحِ
ثُـــمَّ مَـــعَ المُـــدَّةِ فَابْحَـــثْ عَنْـــهُ حَقِّـــقْ وَدَقِّـــقْ مَـــا اسْـــتُمِدَّ مِنْـــهُ
لَكِـــنَّ ذَاكَ بِـــاخْتِلَافِ الفَهْـــمِ مُخْتَلِـــفٌ وَبِـــاخْتِلَافِ العِلْـــمِ
فَالْـــمُبْتَدِيْ وَالفَـــدْمُ لَا يُطِيـــقُ بَحْـــثًا بِعِلْـــمٍ وَجْهُـــهُ دَقِيـــقُ
وَمَـــنْ يَكُـــنْ فِيْ فَهْمِـــهِ بَـــلَادَهْ فَلْيَصْـــرِفِ الوَقْـــتَ إِلَى العِبَـــادَهْ
أَوْ غَيْرِهَـــا مِـــنْ كُـــلِّ ذِي ثَـــوَابِ وَلَـــوْ بِحُسْـــنِ القَصْـــدِ فِي الأَسْـــبَابِ
فَلْيَعْمُـــرِ العُمْـــرَ فَكُـــلُّ ذَرَّةْ رَخِيصَـــةٍ مِنْـــهُ بِـــأَلْفِ دُرَّةْ
فَيَضْـــبِطُ الأَوْقَـــاتَ بِالْـــمَوْقُوتِ مِـــنْ قَبْـــلِ سَـــبْقِ فِتْنَـــةٍ وَفَـــوْتِ
وَالْعِلْـــمُ ذِكْـــرُ اللهِ فِي أَحْكَامِـــهِ عَـــلَى الـــوَرَى كَالشُّـــكْرِ فِي إِنْعَامِـــهِ
فَـــذِكْرُهُ فِي الـــذَّاتِ وَالصِّـــفَاتِ كَالـــذِّكْرِ فِي الأَحْكَـــامِ وَالآيَـــاتِ
لَكِـــنْ كَثِـــيرٌ أُغْفِلُـــوا بِـــالْعِلْمِ وَحُكْمِـــهِ عَـــنْ رَبِّـــهِ ذِي الْـــحُكْمِ
وَأَدْخَلُـــوا فِيـــهِ الْجِـــدَالَ وَالمِـــرَا فَكَثُـــرَتْ آفَاتُـــهُ كَـــمَا تَـــرَى
فَصَـــارَ فِـــيهِمْ حَاجِبًـــا لِنُـــورِهِ عَنْـــهُ فَـــمَا ذَاقُـــوا جَنَـــى مَـــأْثُورِهِ
فَهَلَكُـــوا بِقَسْـــوَةٍ وَكِـــبْرِ وَحَسَـــدٍ وَعَجَـــبٍ وَمَكْـــرِ
نَعُـــوذُ بِـــاللهِ مِـــنَ الخَبَـــالِ وَالعَـــوْدِ بَعْـــدَ الحَـــقِّ فِي الضَّـــلَالِ
فَالـــذَّمُّ مِـــنْهُمْ لَا مِـــنَ العُلُـــومِ فَإِنَّهَـــا مِـــنْ طَلْعَـــةِ القَيُّـــومِ
فَحَـــقُّ مَـــنْ يَخْشَـــى مَقَـــامَ رَبِّـــهِ أَنْ يَعْتَنِـــي بِعَـــيْنِ مَعْنَـــى قَلْبِـــهِ

(١) في الحاشية بخط النَّاظم: (بالحاء المهملَة، وبالجيم)؛ إشارةً إلى جواز الوجهين فالأوَّل من الحُبِّ، والثَّاني من الوجوب.

وَلْيَجْتَهِدْ بِكُلِّ مَا فِي دِينِهِ يَزِيدُهُ بِالْحَقِّ فِي يَقِينِهِ
وَأَنْ يُدِيمَ الذِّكْرَ بِالإِمْعَانِ وَالفِكْرَ فِيهِ فِي جَمِيعِ الشَّانِ
لِيَغْرِسَ التَّحْقِيقَ بِالْيَقِينِ فِي قَلْبِهِ بِالْحَقِّ وَالتَّمْكِينِ
حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ مَوتِ جِسْمِهِ حَيَّ الحِجَا بِنُورِهِ وَعِلْمِهِ
طُوبَى لِمَنْ طَابَ لَهُ فُؤَادُهْ بِالْعِلْمِ وَالتَّقْوَى عَلَيْهِ زَادُهُ
فَسَارَ فِي الحَقِّ عَلَى طَرِيقَهْ بِالْحَقِّ تَهْدِيهِ إِلَى الحَقِيقَهْ
عَلَى اتِّبَاعِ المُصْطَفَى مَبْنِيَّهْ فِي القَوْلِ وَالفِعْلِ وَعَقْدِ النِّيَّهْ(١)

هذا آخر البيِّنة، وتمام المعاني المبيَّنة

ختم المصنِّف وفقه الله هٰذه الرِّسالةَ الوجيزة بقطعةٍ مستحسنةٍ من «ألفية السَّند» للزَّبيدي ((صاحب «تاج العروس»)) وهي ألفيةٌ نظمَ فيها أسماءَ شيوخه وأسانيدهم وضمَّنها جملًا من الفوائد في مقدمتها وخاتمتها، وهما ألفيتان كِلاهما يحملُ اسم «ألفية السَّند» ذكرَ هٰذا تلميذُ تلاميذه فالحٌ الظَّاهري في «الثَّبت الكبير»، وقد طُبعت كلُّ واحدةٍ منهما على حدة، ويظنُّ ناشرُ كل نشرةٍ أنَّ تلك نسخةٌ تختلفُ عن الأخرى، وهي في الحقيقةِ ألفيتان له كلاهما حملتا اسم «ألفية السَّند»، وفي كلِّ واحدةٍ زياداتٌ على الأخرى، ومن عيون ما فيها من الأبيات هٰذه الأبياتُ المذكورة في كيفية تحصيل العلم وما يلزمُ صاحبه من الآداب مع بيان الطَّريق الموصلِ إليه.

(فِي طُرَّةٍ) يعني في قطعة (مِنْ «جَامِعِ البَيَانِ») يعني في كتابه «جامع بيان العلم وفضله».

(اللُّؤْلُئِي) هو الحسن بن زياد صاحب أبي حنيفة.

(الْمَكْنُونِ) من الكنِّ؛ يعني المحفوظ.

(وَيُحْرَمُ الكَبِيرُ) لكثرة الشَّواغل، ذكرهُ الماوردي، وإلَّا فإنَّ البخاري قال في كتاب العلم من «صحيحه» -وهٰذا من فوائده- : (وتعلَّم أصحابُ النَّبيِّ ﷺ كبارًا).

فالعلم في الكبر ممكن؛ لٰكن لكثرة الشَّواغل ربَّما تعسَّر.

(وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبْ) وذلك خلق عجيب، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل هاتين القطعتين وفيهما سِرُّ إدراك الإنسان.

(١) انظر: «ألفيَّة السَّند» للزَّبيديِّ ص ٢٨٣-٢٩١/ ط البشائر، مع مقارنتها بطبعة ابن عزوز ص ١٦٣-١٦٧، ملاحظًا ما قوَّمته من نشرتهما مُجريًا عليهما قلم الإصلاح.

(يُفِيدُهُ بِالْقَلْبِ لَا بِنَاظِرِهْ   لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهْ) القَمَاطِر جمع قِمَطر، وهو وعاءٌ تُحفظ فيه الكتب، بمنزلة الحقائب الموجودة اليوم، قال الخليل:

وليس علمًا ما حوى القِمَطرُ   ما العلمُ إلّا ما حواه الصَّدرُ

(وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ) يعني أسلك الطُّرق الجميلة الموصلة إلى ما ينفعُك في العلم. (وَالْعِلْمُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْأَدَبْ) لا يُعطاه المرءُ إلّا إذا كان متأدِّبًا.

(الْأَدَبُ النَّافِعُ: حُسْنُ الصَّمْتِ   فَفِي كَثِيرِ القَوْلِ بَعْضُ الْـمَقْتِ) المقت: البُغض.

(((فَكُنْ لِـحُسْنِ الصمْتِ مَا حَيِيتَا   مُقَارِنًـــا تُحْمَـــدُ مَـــا بَقِيتَـــا)

ومن أعظم أخلاق النُّفوس التي يحتاجها طالب العلم الصَّمت، فإنَّ طالب العلم الصَّمت، فإنَّ النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» رواه أبو هريرة وغيره في «الصحيحين»، وذلك يحتاج إلى مجاهدة عظيمة، وقد روى ابن أبي الدُّنيا في كتاب «الصَّمت» بسند صحيح عن ابن مسعود قال: «ما رأيت شيئًا أحقّ بطول حبس اللِّسان» وروى ابن سعد في كتاب «الطَّبقات» ..قال: جاهدت نفسي عشر سنين على تعلُّم الصَّمت. ومن منافع الصَّمت لطالب العلم ما ذُكره بعد إذ قال:))

(فَكَمْ رَأَيْتُ مِنْ عَجُولٍ سَابِقِ   مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ بِالْـخَـطَاءِ نَاطِقِ) الخطاء لغةٌ في الخطأ. ((روى الدَّارمي وغيره بسند صحيح عن ابن مسعود قال: من أفتى النَّاس في كلِّ ما يسألونه فهو مجنون، فما يقول ابن مسعود لو رأى اليوم كثير من النَّاس يفتون قبل أن يسألهم النَّاس! !، فهٰذا أجلّ الجنون وأشدّه.))

(فَذَاكَ شَطْرُ العِلْمِ) الشَّطر: النِّصف، والمشار إليه في البيتين هو قول: لا أدري، (كَذَاكَ مَا زَالَتْ تَقُولُ الْحُكَمَا) كانت تقول: (لا أدري شطر العلم)، وأقدم من رُوي عنه هٰذا المعنى هو الشَّعبي، رواه عنه الدَّارمي في «سننه»، ثم تتابع النَّاس بعده على ذكره حتى صار أمرًا مستقرًّا.

((وأشرتُ إلى ذلك في أبياتٍ لي أوّلها:

وقول (لا أعلم) عند العلماء   عدَّ بالعلم ونصفا دُعيا

إلى آخر ما في تلك الأبيات، فقول: (لا أدري) ليس دلالة الجهل؛ بل دلالة العلم، فقد صحَّ عن الإمام مالك كما رواه عبد البر في «الجامع» وغيره أنه سئل عن أربعين مسألة أجاب في ست وثلاثين منها بقوله: لا أدري.))

(فَاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَهْ) مع سلامةِ دينك، هٰذا هو الأمر الأعظم، عندما السَّلف يقولون: في العُزلة

السَّلامة، ويقولون في الصَّمت السَّلامة، يقصدون سلامة المرء في دينه عند الله عزَّ وجلَّ ، والنَّاس اليوم في العلم أكثرهم يفهم السَّلامة: السَّلامة من بطش الحكَّام، ويظنّ أنَّ الجهاد وإقامةِ الحقّ تكون بالمهاترات، المقصود سلامة دين الإنسان عند الله عزَّ وجلَّ، فكما أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُتعبَّد بالكلام في الدِّين، كذلك يُتعبَّد بالصَّمت في الدِّين، وقد بيَّن هٰذا المعنى الشَّاطبي في كتاب «الموافقات»، فكما يَحسنُ بالمرء أن يتكلَّم في حين فإنَّه يجمُل به أن يسكت في حين، وفي الصَّحيح أنَّ أبا هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: حملتُ عن النَّبيِّ ﷺ وعاءين، فأمَّا أحدهما فبثته، وأمَّا الآخر فلو بثثتُه لقُطِع هٰذا البلعوم. من يقطعه؟ تقطعه الفتنة بين المسلمين، ليس مقصوده الخوف من السَّلاطين كما يفهمه بعض النَّاس اليوم، يقصد أنَّ ما حفِظَه عن النَّبيِّ ﷺ من أحاديث الفتن التي فيها تعيين الأشخاص وتسميتهم من أُغيلمة بني أمية أنَّه ربَّما تكلَّم به لوقعت فتنةٌ بين المسلمين ولَّدت قتله، وقتل غيره من المسلمين هٰذا معنى كلامه رَحِمَهُ اللهُ، وينبغي أن يُراجع طلب العلم كلام الشَّاطبي في «الموافقات» حتى يعرفَ أنَّ من مقامات العلم إلزامُ اللِّسان بالإلجام عند عدم ظهور المصلحة في الكلام.

((هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَا وَعُصْبَةٌ بِالْعِلْمِ يَجْهَلُونَا)

وهٰذا اقتباس لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٩]، والاقتباس أن يُضمَّن الكلام قرآنًا أو شيئًا من حديث النَّبيِّ ﷺ كما قال الأخضري في «نظمه» المشهور:

والاقتباسُ أن يضمَّن الكلام قرآنًا أو حديث سيد الأنام))

(وَهْوَ مَعَ التُّقَى هُدًى وَنُورُ وَهْوَ مَعَ الزَّيغِ بَذًى وَبُورُ) البَذَى: سوءُ الخلق، والبُور: الفساد؛[1] فإذا فُقد التُّقى من العلم صار صاحبه على هذه الحال متَّصفًا بالبذى وهو سوء الأخلاق وبالبور وهو الفساد.

(فَعِلْمُ ذِي الأَنْوَارِ فِي جَنَانِهِ) يعني علمُ صاحبُ الطَّاعات في قلبه (وَعِلْمُ ذِي الأَوْزَارِ فِي لِسَانِهِ) يعني علم صاحبُ الذُّنوب في لسانه.

قوله :

(فَمَا حَوَى الغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَهْ شَخْصٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنٍّ أَحْسَنَهْ
بِحفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ
ثُمَّ مَعَ المُدَّةِ فَابْحَثْ عَنْهُ حَقِّقْ وَدَقِّقْ مَا اسْتُمِدَّ مِنْهُ)

(١) ((البَذَى: الفساد، والبُور: سوءُ الخلق)).

هٰذه الأبياتُ الثَّلاثة هي من عيون الأبيات المذكورة من هٰذه القطعة من هٰذا النَّظم،

(فَمَا حَوَى الغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَهْ ... شَخْصٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنٍّ أَحْسَنَهْ)

ثم أرشدَ إلى كيفية الأخذ فقال: (بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ) يعني متنًا معتمدًا ((وهو المعتمد عند أهل العلم، وليس المتن الجامع للرَّاجح كما صار الناس عليه يؤلفون كتبا ويسمونها كتب الرّاجح، هٰذا هو الكتاب الذي يدرسه، صار بعض الناس يدرس كتاب «شرح الدّرر البهيّة» لصديق حسن خان، ويقول: هٰذا جامع للرَّاجح، والرَّاجح عند صديق حسن والشوكاني ليس راجحا عند غيرهم، الترجيح أمر نسبي، والأخذ بالكتب المعتمدة التي تتابع عليها أهل العلم رحمهم الله تعالى هو الذي ينفع الإنسان))، (تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ) أي على رجلٍ متَّصفٍ بوصفين:

أحدهما: الإفادةُ وهي الأهليَّة في العلم.

والثاني: النُّصح وهي معرفتهُ بطرائق التَّعليم.

ثم بعد ذلك فابحث مسائلهُ وحقِّقها ودقِّقها، والذي يشتغلُ في مبادئ التَّحصيل بتحقيق المسائل يُتعِبُ نفسه؛ لأنه لم تكتمل له قدرةُ التَّحقيق بعد، فإذا كان في مبادئ الطَّلب فإنَّه يتفهَّمُ المسائل التي تُلقى إليه ويحفظُها ويفهمها، ثم بعد ذلك إذا رُزق فسحةً من أجله فإنَّه يحقِّقُ مسائل الفنون ويعيد النَّظر فيها.

(فَالْمُبْتَدِيْ وَالفَدْمُ) والفدم هو البليد من النَّاس.

((ثم قال:

(وَالْعِلْمُ ذِكْرُ اللهِ فِي أَحْكَامِهِ ... عَلَى الوَرَى كَالشُّكْرِ فِي إِنْعَامِهِ
فَذِكْرُهُ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ ... كَالذِّكْرِ فِي الأَحْكَامِ وَالآيَاتِ)

يعني أنَّ العلم من القُرب التي من تقرَّب إلى الله بها فهو من ذكر الله، وقد بيَّن هٰذا المعنى مبسوطًا بكلام الله وكلام نبيِّه ابن القيم في كتاب «الوابل الصيِّب»، وصحَّ عن عطاء رَحِمَهُ اللهُ تعالى أنَّه كان يقول: فتِّش من يتعلَّم فيه الحلال والحرام من ذكر الله.))

(نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الخَبَالِ) الخبال يعني الفساد والهلاك.

(حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ مَوتِ جِسْمِهِ حَيَّ الحِجَا) الحِجَا: العقل، والمراد بقاء ذكره ببقاء معارفه منشورة اللِّواء بين الخلق.

وبتمامها نكون قد فرغنا بحمد الله عزَّ وجلَّ من قراءة هٰذا الكتاب.